العباس بن علي
(عليه السلام)
بطل الحق والحرية

عبدالحميد المهاجر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب : ٧١٢٠

العباس بن علي
(عليه السلام)

بطل الحق والحرية

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات :

بيروت ـ شارع المطار ـ قرب كلية الهندسة ـ ملك الاعلمي ـ ص.ب : ٧١٢٠

الهاتف : ٨٣٣٤٥٣ ـ تلفاكس : ٨٣٣٤٤٧ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ
وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ
﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

مقدمة

في حياة أبي الفضل العباس ، قمم مضيئة ،تنير دروب الأحرار في العالم ، وتعلمنا كيف نرتفع إلى مستواها في أخلاقنا ، وحياتنا ، وسلوكنا .

إن العباس بن علي ، عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ يُعدّ اليوم مدرسة للأجيال التي تبحث عن هويتها . . . للأجيال التي تبحث عن الحق ، والعدالة والحرية .

إن منزلة هذا البطل العظيم ترتفع ، وتسمو ، حتىٰ تبلغ أقصىٰ مراتب السمو ، بحيث تصبح منزلته موضع غبطة لكل الأحرار في الدنيا ، ولكل الشهداء في الآخرة . فقد قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين ـ عليه السّلام ـ :

«رحم الله عمي العباس بن عليّ فلقد آثر وأبلىٰ وفدى أخاه بنفسه حتى قطعت يداه فأبدله الله بجانحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة كما جعل لجعفر بن أبي طالب ، وإن للعباس عند الله تبارك وتعالىٰ منزلةً يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة» .

على أن العباس ، إنما حصل على هذه المنزلة ، بفضل العقيدة الراسخة الثابتة التي كان يتميّز بها أبو الفضل . . وبفعل الوعي ، والرشد ،

والذكاء والفطنة والمعرفة الكاملة لما يجري حوله في الحياة ، فهو نافذ البصيرة صلب الإيمان، وهما لعمري ، صفتان تجعلان الإنسان في أعلىٰ مراتب السمو ، والعظمة لأن المؤمن إنما هو الكيس الفطن الذي لا تهجم عليه اللوابس ، فالرؤية واضحة أمامه ، والطريق يمتد بين يديه في وضوح وتألق وانتصار .

وقد أشار الإمام جعفر الصادق ـ عليه السَّلام ـ إلى هذه الحقيقة بقوله :

(كان عمنا العباس بن علي ـ عليه السَّلام ـ نافذ البصيرة ، صلب الإيمان . جاهد مع أخيه الحسين ، فأبلىٰ بلاءً حسناً ، حتىٰ قطعت يداه ، فأبدلهما الله سبحانه بجناحين يطير بها مع الملائكة في الجنة) .

والقلم يعجز عن إدراك هذه الشخصية ، ولكنها شخصية محبوبة تعيش في القلوب العامرة بالإيمان والتقوى .

إذاً فلنمشِ في ظلال هذه الصفحات، التي كتبتها في سيرة هذا البطل العظيم ، أبي الفضل العباس ، بطل الحق والحرية ، وبطل العدالة والإيثار ، والمساواة .

وإننا لفي أمس الحاجة إلى إحياء هذا الجانب الحضاري في الإسلام ، جانب البطولة والعظمة ، جانب أبطال الإسلام ، أُولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، . . . ونحن بدورنا نستلهم فهم روح الشجاعة والسماحة ، والأريحية التي لا تنبت إلاَّ في طينة طيبة ، وأجواء نقية طاهرة .

إن حياة العباس بن علي ـ عليه السَّلام ـ ملحمة حضارية ، تصنع العقول وتبني الأرواح ، وتهذّب النفوس .

إنها مدرسة تربوية ، وحضارية في وقت واحد ، لا يستطيع الدخول إليها إلاَّ الأحرار ، وكلكم أحرار أيها القراء الكرام .

حينما يكون الايمان عميقا
ابو الفضل: ايمان عميق
ورؤية واضحة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون . . ﴾.

تكوين الإنسان من الروح والبدن. . له فلسفة عميقة ولكنها واضحة وهي :

إن حاجات الإنسان ليست واحدة. . وإنما هي متعددة ومختلفة فجانب الروح له حاجات، وجانب البدن له حاجات أيضاً غير أن حاجات البدن محدودة، في حين أن حاجات الروح ليست لها حدود. . . ولتوضيح الفكرة أضرب لكم المثال التالي: خذوا مثلاً بدن الإنسان وفتشوا عن حاجاته، تجدوا أن حاجاته محدودة ومعينة، فاللباس حاجة للبدن وهي محدودة فلا يستطيع الواحد منا أن يلبس أكثر من بدلة واحدة. . وثوب واحد وإلا يبدو مظهره مضحكاً ومثيراً للسخرية. . وكذلك الطعام فهو يسد حاجة جسدية ولذلك فالأكل محدود وليس في وسع الشخص أن يأكل أكثر من القدر المتعارف المألوف. . وما يقال في اللباس والطعام يقال أيضاً في الشراب والسكن إذ أن الكمية من الماء التي يحتاجها البدن تكون في العادة محدودة جداً، وكذلك السكن فإن المرء لا يستطيع أن يجلس في أكثر من

مسكن واحد في وقت واحد.. وهكذا في بقية الأشياء التي تخص البدن.. بينما حاجات الروح لم تكن محدودة، ولا محصورة في هذه الأشياء التي مرت علينا.. وإنما تبدأ حاجات الروح ولا تنتهي.. وخذ مثلاً ـ على ذلك ـ رجلين أحدهما يأكل الطعام في طبق.. والثاني يقرأ العلم في كتاب، فإنك تجد صاحب الطعام قد شبع من الأكل بعد لقيمات معدودة في حين أن صاحب الكتاب لم يشبع من القراءة حتىٰ بعد انتهاء الكتاب فإنه يستطيع أن يقرأ كتاباً آخر، وآخر إلى ما شاء الله.. ولتوضيح الفكرة أكثر نحن نعرف أن في الإنسان حواساً موزعة على الروح والبدن فالسمع والبصر لغذاء الروح.. بينما الأنف والفم لغذاء البدن.. ونلاحظ هنا أن الفم يشبع من الطعام ولكن العين لا تشبع من القراءة... ولا من النظر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن غذاء الروح ليس محدوداً ولا مقصوراً في أشياء معنية.

والآن وبعد هذه المقدمة ألا تتفق معي أيها القارىء الحبيب أنَّ الدين هو حاجة الروح العظمىٰ لأنه يمنحها الراحة والطمأنينة.. ويعطيها السعادة والكرامة في الحياة.. وبعد الممات؟

علىٰ أن الذي يعرف هذه الحقيقة؛ يدرك قيمة الدين وثمن العقيدة فيهب للدفاع عنها باذلاً كل ما يملك من غالٍ ونفيس، راجياً بذلك ـ من الله سبحانه ـ أجراً عظيماً.. وهذه الحالة نجدها قد تجسدت في سيرة أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ بأروع وأحسن وأعلى أشكالها.

ونحن نعرف أن هذه الحالة إنما تصنعها الصلاة والعبادة ، إذا أديناها في خشوع وثبات وإخلاص.

يقول القرآن الكريم:

﴿قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾.

ولأن أبا الفضل العباس كان من العابدين الخاشعين فإنه لا بد لنا من إلقاء نظرة ولو سريعة على هذا الجانب الحضاري في الإسلام، وهو جانب العبادة والصلاة والتهجد. . لأن هذا الطريق هو الذي يجعل الإنسان رائداً في طريق الحق. . هاجسه الخير وحب العطاء وتحمل المسؤولية.

إن العباس بن علي كان نافذ البصيرة ـ أي واعياً عارفاً بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. . وكان زاهداً عابداً يبدو عليه أثر السجود وسيماء الصلاة بين عينيه وفي جبهته المقدسة.

كان لا يدع صلاة الليل تفوته ولا قراءة القرآن تفلت من بين يديه. . هكذا علّمه أبوه علي أمير المؤمنين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ وهكذا زرعت أمه ـ أم البنين ـ مبادىء الحق ومكارم الأخلاق وحب الخير في نفسه، وفي قلبه الطاهر الزكي وهو لم يزل وليداً يحبو بين يدي أمه الطاهرة فاطمة بنت حزام العامرية التي يوم تزوجها الإمام علي وجد فيها امرأة عظيمة قد مُلئت إيماناً من رأسها إلى أخمص قدميها. . وسيأتي الكلام عنها في حينه حيث قيل عنها: إنها يوم زفت إلى بيت الإمام علي ـ عليه السلام ـ طلبت من أهلها وأخوتها أن يقفوا على الباب ريثما تدخل وتخرج إليهم. . وهكذا فعلت. . حيث دخلت الدار ثم ما لبثت أن خرجت إليهم والدموع تفيض من عينيها قائلة لهم: انطلقوا على بركة الله فقد وافق الحسن والحسين علىٰ بقائي في الدار. . وحين سألوها عن ذلك أجابت: إني سألت الحسن والحسين إذا كانا يقبلاني خادمة عندهما في البيت أقوم بخدمتهم جميعاً.

لقد دخلت أم البنين على الحسن والحسين زينب عليهم السلام وقالت لهم: سادتي أنا هنا خادمة عندكم جئت لخدمتكم فهل تقبلوني بهذا الشرط. . وإلا فإني راجعة إلى داري فرحب بها الحسن والحسين وزينب وقالوا لها:

أنت عزيزة كريمة وهذا بيتك.

وناهيك بطفل يتلقىٰ مبادىء التربية في هذا الجو العائلي المميز.

إن أبا الفضل العباس ـ عليه السلام ـ كان قد شب وترعرع في حجر هذه المرأة الطاهرة. وتلقىٰ رعاية منقطعة النظير من أبيه أمير المؤمنين علي.. ومن أخويه السبطين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة ـ.

وكانت الصلاة لا تفارق شفتيه، وكان الإيمان يضيء وجه أبي الفضل العباس حتىٰ قال فيه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة.. صلب الإيمان..» فبيَّن الإمام أبو عبد الله الصادق: إن البصيرة النافذة تحتاج إلى صلابة في الإيمان.. لأن الصلابة في العقيدة تصنع الوعي في الفكر.. وتزرع الرشد في النفس.. حتىٰ ليبدو أن الصلابة في الإيمان شرط أساسي في صحة العقيدة لأنها تمنح المرء وعياً والإنسان من دون وعي لا يستطيع أن يفهم دينه ولا أن يفقه عقيدته وإنما يطبق على نفسه طقوساً تعبدية جامدة ليس فيها نور ولا بصيص.

وإذا عرفنا أن الإمام علياً ـ عليه السلام يربي أصحابه على الوعي والرشد فإننا ندرك كم هو حرص علي على تربية أبنائه علىٰ ذات هذا الوعي الراشد.. فهو ـ مثلاً ـ يخاطب كميل بن زياد ـ وهو أحد أصحابه ـ بقوله: «يا كميل إن هذه القلوب أوعية وخيرها أوعاها».

إن أول شيء يمنحه الإمام علي إلى أبنائه، هو الوعي فيجعل من كل واحد منهم بطلاً من أبطال العلم والوعي والمعرفة.. وهكذا كان أبو الفضل العباس عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام.

فقد تلقىٰ أبو الفضل علومه من أبيه علي.. ومن أخويه الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة.. ومن الإمام زين العابدين عليه السلام..

وهكذا يكون أبو الفضل العباس قد تتلمذ على يد أربعة من الأئمة

المعصومين أي أنَّه تلقىٰ علومه في أرقىٰ جامعات العلم والمعرفة . . جامعات ليس لها مثيل ولا نظير . . وإلا فأي جامعة يمكن أن يرأسها واحد مثل الإمام علي ـ عليه السلام ـ الذي كان يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه؟ . . وأي جامعة مثل الجامعة العلمية التي يديرها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؟؛

وبالتالي هل هناك جامعة تضاهي جامعة الإمام زين العابدين ـ عليه السلام ـ في العلم والمعرفة والحضارة؟ .

لا أظن ذلك .

وإذا كان الأمر كذلك فأي مانع من أن نشير إلىٰ أن أبا الفضل العباس كان قمة في العلم والحضارة كما كان قمة في الخشوع والعبادة . . كما كان قمة في البطولة والجهاد والفداء ... وبالتالي كان أبو الفضل قمة في الوفاء والنصيحة . . وفي كل مكارم الأخلاق لأنه بطل ورث من أبيه شجاعة وعلماً وأدباً ومعرفة ونوراً .

ولهذا لما هوىٰ أبو الفضل على وجه الثرىٰ ناداه الحسين بهذا النداء :

أخي أبا الفضل . . الآن انكسر ظهري . . وقلت حيلتي وشمت بي عدوي . . ثم انحنىٰ عليه يقبله ودموعه تجري على خده ولحيته . وهو يقول :

هوّنت يا ابن أبي مصارع فتيتي ... والداء يسكنه الذي هو أألم
أأخي يهنيك النعيم ولم أخل ... ترضى بأن أرزى وأنت منعم
قد رام يلثمه فلم ير موضعاً ... لم يدمه حر السلام فيلثم
لسواك يلطم بالأكف وهذه ... بيض الظبي لك في جبين تلطم
أأخي من يحمي بنات محمد ... إن صرن يسترحمن من لا يرحم

العقيدة ركيزة ثابتة

العقيدة ركيزة ثابتة في حياته

قال الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ :

«كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة صلب الإيمان».

إن الإيمان العميق والرؤية الواضحة والعقيدة الصلبة؛ هي الركيزة الثابتة في حياة أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ.

. . . تضطرب الدنيا من حوله، وتهتز الأرض من تحت قدميه فلا يضطرب هو، ولا يهتز لأنه مستند إلى هذه الركيزة الغالية، وهذا الركن الشديد الذي يأوي إليه الإنسان المؤمن ساعة العسرة والشدة بل في كل وقت يلجأ المؤمن فيه إلى هذا الملاذ، يجد في قلبه حلاوة الإيمان ويحسُّ في أعماقه بنور الطمأنينة يتدفق في داخله، ويجري في أوصاله.

إنها العقيدة التي لا أغلىٰ ولا أثمن منها. . إنها العقيدة التي تشدنا إلى الله عز وجل. . وليس لنا ملجأ ولا ملاذ سواه. فكل من يقصد سواه يخيب، ويصاب بالإحباط والفشل. خاب الوافدون علىٰ غيرك. . وخسر المتعرضون إلّا لك. .

ولأن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ هم الباب الأول الذي يوصلك إلى رضوان الله ورحمته، فقد جاء في الدعاء والزيارة:

«ما خاب من تمسك بكم.. وأمن من لجأ إليكم..».

هذه هي العقيدة الثابتة التي تقيم السعادة في الحياة.. وهي ـ أي العقيدة لا يدركها إلا الفطن الواعي الرشيد.. أما الذي يكتفي بإيمان سطحي فإنه لا يمكن أن يعرف قدر هذه العقيدة أبداً.

إن العبادة المنجية، التي تخلص من الحرمان، وتنقذ الناس من النار ومن العذاب، هي العبادة المستوعبة لأبعاد الإسلام، وجوانب الإيمان.. وليست العبادة الفارغة من المحتوىٰ والمضمون.

إنها عبادة واعية رشيدة.. تقوم علىٰ أساس من الفهم والمعرفة.. وليس علىٰ أساس من القشرية والسطحية... ومع الأسف الشديد أنَّ هناك نموذجاً من الناس يزن العقيدة بميزان الربح والخسارة فيتعامل مع الدين مثلما يتعامل مع صفقة في سوق التجارة، والبيع والشراء.. وهذا القسم من الناس هو القسم الذي يعبد الله علىٰ جانب واحد في الحياة أي أنه لم يأخذ الأمر بكل جوانبه وإنما بنىٰ عبادته علىٰ أساس الربح والخسارة، فإذا كانت الدنيا تدر عليه مقبلةً فإن الدّين جميل وحسن ولا بد من اعتناقه.. أما إذا أدبرت الدنيا عنه، فعندئذ يكون الدين لعقاً على اللسان ليس أكثر من ذلك.

إنه يعبد الله في الرخاء لا في الشدَّة. وفي الغنىٰ لا في الفقر.. وفي الصحة لا في السقم.. وهكذا.. فما دام الوضع جيداً بالنسبة إليه فإن الدين جيد أيضاً.. في حين أنه ينقلب علىٰ وجهه إذا أصابته فتنة أو ناشته بليّة، أو انحرفت قدمه فوقع علىٰ الأرض.. إنه هنا ينسىٰ الله وينسىٰ الإيمان وينكفىء على وجهه في حمأة الشيطان.. وهذا إن دلّ على شيء

فإنما يدل على ضعف العقيدة، وقلة الإيمان أو قل: فقدان الإيمان بالكامل.

ففي الحرب والسلم.. والصحة والمرض.. والفقر والغنىٰ.. والعسر، واليسر.. نجد الإنسان المؤمن ثابتاً لا يهتز أبداً إنما هو مثال الحسن والتقوىٰ ومكارم الأخلاق.. إنه مجمع الخصال الطيبة.

كما جاء في دعاء كميل: «واجعلني في كل الأحوال متواضعاً..» وهذه هي حقيقة النفس الثابتة التي تعتمد علىٰ عقيدة ركيزة ليس فيها اهتزاز أبداً... هذا بالنسبة إلى المؤمن أما ضعيف الإيمان أو الذي لا إيمان له علىٰ الإطلاق فإنه سرعان ما ينهار في أول صدمة تصادفه في الحياة.

على أن الضراء عند نزولها تجعل الناس صنفين: صنفٌ يزداد انشداداً إلىٰ الله عز وجل.. في حين أن الصنف الثاني يزداد ابتعاداً عن الله وكفراً به.. أجل.. فنوع يزداد انشداداً إلى الله عند نزول البلاء.. بحيث كلما نزل عليه الخطب ازداد تعلقاً بالله عز وجل.. بينما نوع آخر علىٰ العكس تماماً، فهو يسقط ويقع في الهاوية لأول صفعة توجه إليه.

يقول القرآن الكريم: **﴿ومن الناس من يعبد الله علىٰ حرف.. فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب علىٰ وجهه خسر الدنيا والآخرة..﴾**

ومن هذا المنطلق نجد سيد الشهداء أبا الأحرار الحسين بن علي - عليه السلام - يصف الناس الذين خرجوا لقتاله بهذا الوصف، يصفهم «بأنهم عبيد الدنيا والدين لعق علىٰ ألسنتهم يحوطونه ما درت معايشهم فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون».

ولكي نتجنب السقوط في هذه الحمأة، فإنه لا بد لنا من معرفة الدنيا وكيف جرىٰ تركيبها، لأن الذي لا يعرف حقيقة الدنيا تغره وتوقعه في حبائلها. يقول الإمام الحسين - عليه السلام - :

«أحذركم من الدنيا فإنها دار فناء وزوال متصرفة بأهلها حالاً بعد حال.. فالمغرور من غرته والشقي من فتنته، فلا تغرنكم هذه الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيب طمع من طمع فيها».

إذن: فلا بد من معرفة الدنيا، حتىٰ لا نقع في حبائل غرورها، ومصائد زخرفها.. والسؤال الآن هو: هل هي حياة هنيئة مطمئنة ليس فيها نصب ولا تعب ولا شقاء.. أم أنها حياة قائمة علىٰ التدافع والتنازع والصراع؟.

أظن أن معرفة هذه الحقيقة هي وحدها التي تجنبنا السقوط في الهاوية. ـ وهي التي ترينا الحقيقة بعين الوعي، والرشد والذكاء.

إن نظرة واحدة نلقيها علىٰ معالم الفكر الإسلامي الأصيل ترينا بوضوح أن الله عز وجل قد جعل الدنيا دار بلاء وامتحان لتوافق تركيبة الإنسان الذي خلقه الله وجعله حراً لم يفرض عليه عقيدة ولا نظاماً وإنما خلقه حراً وأوضح له سبل الخير وأمره أن يسلكها في الوقت الذي أوضح له فيه سبل الشر وأمره أن يتركها ويهجرها ويبتعد عنها.

فقال عزَّ من قائل:

﴿إنَّا هديناه السبيل شاكراً وإما كفوراً﴾.

وقال: **﴿إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعاً بصيراً﴾**.

على أن الذي يقرأ القرآن الكريم بشيء من التدبر والتأمل والوعي، يصل إلى هذه الحقيقة وهي أن الإنسان إنما أوجده الله بهذا الشكل وهذا اللون من الخلق والإبداع ليعيش حراً في الحياة يعبد الله دون سواه بغير إكراه ولا إجبار، وشعاره: «لا إكراه في الدين قد تبيَّن الرشد من الغي».

ومن هنا كانت الدنيا لمن يعمل: **﴿وأن ليس للإنسان إلّا ما سعىٰ.. وإن سعيه سوف يرىٰ..﴾**

ثم تجيء آية ثانية لتؤكد أن الحياة لم تكن مقصورة علىٰ المؤمنين دون الكافرين.. وإنما هي موزعة الأسباب بين الجميع.. فكل من يعمل يصل إلى غايته.. وكل من يزرع يحصد، فلا نتيجة من دون مقدمة.. ولا حصاد بغير زرع.

يقول الحق سبحانه:

﴿كُلا نُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾.

هذا طبعاً في الأسباب المادية وليس المعنوية.. لأن الأسباب المادية موزعة علىٰ الجميع بالتساوي فهي أشبه بالفرص التي تمر على الناس فينتفع بها الذكي الفطن، ويتركها الغبي الكسول.. في حين أن الأسباب المعنوية تكون خاصة بالمؤمنين دون غيرهم.

ولتقريب المعنىٰ أضرب لكم المثال التالي:

لنأخذ الشفاء.. وهو نوعان: نوع مادي، ونوع معنوي.. فالمادي يعطيه الله للناس كافة.. بينما الشفاء المعنوي يظل مقصوراً، علىٰ المؤمنين وحدهم.. وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلىٰ هذه الحقيقة فقد ورد في القرآن نوعان من الشفاء: واحد مادي.. وواحد معنوي. المادي في العسل.. والمعنوي في نور القرآن.. ففي العسل يقول: **﴿يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس﴾.**

بينما في القرآن يقول: **﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾.**

فالشفاء من العسل، يعد شفاءً مادياً وهو يستفيد منه الجميع،

ويستخدمه كل الناس. . فإن ملعقة من العسل واحدة تمنح الإنسان شفاءً جسدياً عاجلاً ولا علاقة لها بعقيدة هذا الإنسان الذي أكلها سواء كان يهودياً أو مؤمناً يحب محمداً وأهل بيته. . في حين أن الشفاء الذي يحمله القرآن الكريم بنوره، هذا خاص بالمؤمنين دون غيرهم. . ومن كل هذا نستفيد وندرك ونفهم أن أسباب الدنيا جعلها الله لمن يعمل بها لأنها تنفعل بالإنسان الذي يفعل بها ويتفاعل معها.

وبذلك نجد الحياة تقع بأيدي المفسدين عندما يتقاعس المصلحون. . في حين أنها تقع بأيدي الصالحين إذا نشطوا وأعدوا للنجاح عدته وأخذوا له استعداده وأسبابه. . كما يقول القرآن الكريم بالنسبة لذي القرنين إنه أخذ بأسباب الحياة فتقدم بها وسيطر علىٰ العالم أجمع. . **﴿وأتيناه من كل شيء سبباً، فاتبع سبباً﴾**.

وتصوروا رجلين يريدان عبور النهر. . أحدهما يحسن السباحة وهو كافر والثاني لا يتقن فن السباحة وهو مؤمن، فمن منهما يعبر النهر؟

لا شك أن الكافر العالم بالسباحة هو الذي يعبر في حين يعجز المؤمن الجاهل بفن العوم. . وهذا المثال يدل علىٰ أن الأسباب المادية مطروحة بين يدي من يتعرف عليها ويتقن التعامل بها ومعها. أما الذين لا يفهمون فنها، فإنهم ـ ولا شك ـ لا يربحون بل يخسرون.

وبعد هذه الجولة السريعة ندرك كم هو الإيمان العميق مهماً وضرورياً في حياة الإنسان الرشيد.

إن أبا الفضل العباس ـ سلام الله عليه ـ كان في قمة الوعي والرشد. . كان في غاية الفطنة والذكاء. فهو بمقدار ما يحمل من الإيمان في قلبه، كان يحمل من الوعي والرشد في عقله وفكره.

أجل. . لم تكن الرؤية غائمة أمام العباس بن علي وإنما كانت الرؤية واضحة. لأن بصيرته نافذة ونفاذ البصيرة يصحبه إيمان راسخ وعميق. . ولذلك

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ مشيراً إلى هذه الحقيقة:

«كان عمنا العباس بن علي ـ عليه السلام ـ نافذ البصيرة صلب الإيمان» ولهذا حين قطعوا يمينه قال:

والله إن قطعتمو يميني إني أحامي أبداً عن ديني

لماذا قال هذا الكلام؟

إنما قال هذا لأنه لم يكن يعبد الله علىٰ حرف . . وإنما كان يعبد الله بشوق وإخلاص حتىٰ أتاه اليقين . . واليقين إذا حلَّ في القلب فإن الأمور تصبح واضحة وليس عليها غبار ولا غمام يقول القرآن:

﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة . .﴾ بمعنىٰ لا يكن أمركم وسيرتكم في الحياة في غمام وضباب وإنما افتحوا قلوبكم وبصائركم لتروا الحقيقة أمامكم واضحة كالشمس.

عش عزيزاً أو مت وأنت حر

الإسلام لا يريـد منك فقط أن تحمـل الحق في داخلك، وإنما يـريد منك الإسلام أن تعيش مع الحق وأن تعرف كيف تضحي من أجله وتمـوت من أجل الحق. . فتموت وأنت تعانق الحق. . فليس المهم أن يعيش المرء مـع الحق ـ وإن كـان مهمـاً في ذاتـه ـ ولكنَّ الأهم في ذلـك أن يخـطط لمـوتـه. . ويعـرف كيف يمشي للمـوت بـرجله. . مشيـة الـواثق بـالحق، المتفاني من أجله. . أن يعرف كيف يعانق سمر العـوالي، وكيف يقبل ثغـر السيوف البارقة في ساحات الوغى، وجبهات القتال.

لقد كان في إمكان الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ أن يظل في المدينـة فيقتل هنـاك. . وكان في إمكـانـه أن يـظل عـاكفـاً في البيت الحـرام. . في مكـة المكرمة حتىٰ يأتيه الموت أو تأتيه خناجر يزيد فتقتله. . ولكنه لو فعل ذلـك لما أصاب الأثر الذي أصابه بمصرعه يوم عاشوراء.

إن الإمام الحسين أراد إسقاط أكبر دولة ظالمة كانت في وقته. . دولـة كلهـا ظلم واعتداء علىٰ حقـوق النـاس، واستبـداد من الحكـام الـظلمـة. . استبداد من الظالمين ترك جمع الناس حصيدا. . وفيئهم زهيدا.

إن الحسين ـ عليه السلام ـ أراد أن يحـرق عـروش الـظالمين. . أن يـزعـزع

بنيانهم من القواعد.. ويسقط عليهم كسفاً من السماء.. ولهذا خطط لموته وشهادته تخطيطاً دقيقاً وحكيماً وموفقاً.. بحيث استطاع أن يحدث انقلاباً كبيراً في عروش الطغاة.. لقد استطاع أن يقلب كل العروش حين أشعل فتيل الثورة في ضلوع المقهورين والمطحونين بالحرمان والعذاب.

لقد حرك الحسين قوافل الأحرار وأضاء مشاعل الفكر في دروب المعذبين والفقراء والمساكين.. حتىٰ انطلق الأحرار في كل مكان يحملون بيارق النصر.. وأعلام الحرية.

من أجد ذلك رفع الحسين صوته مدوياً في وجوه الخانعين الأذلة:

«كونوا أحراراً في دنياكم»

وقد أثبت لهم أنه لا يرىٰ الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلاّ شقاءً وبرماً.

ومن هذا المنطلق فإنه يتوجب علينا أن نبحث عن الحق.. وأن لا نستوحش من طريق الحق لقلة سالكيه.. وعلينا دائماً أن نعرف أن الحق لا يعرف بالرجال.. بل الرجال يعرفون بالحق.. وإذا أردنا أن نستوعب هذه العبارة فإن معناها: «لا تبحثوا عن الحق في الرجال.. ولكن ابحثوا عن الرجال في الحق..» بمعنىٰ أن يكون للحق وجود مستقلٌ بذاته.. يجتمع عليه روّاده وطالبوه. وأبو الفضل العباس ـ عليه السلام ـ هو رمز الحق، وشعلة الدفاع عن الحق.. ولأنه كان يتعامل مع الحق فقد التحم به التحاماً منقطع النظير حتىٰ صار هو والحق نوراً واحداً يضيء الطريق للأجيال، ويرش درب المجاهدين بالنور واليقين والأمل المشرق..

الأمل بانتصار الإيمان.. وغلبة الحق وأن الذين نصروا الحق هم الخالدون وهم الأحرار والشرفاء.. وهذه هي رسالة أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ إلى كل أحرار العالم.

التزكية في مناهج الانبياء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ .

في مناهج الأنبياء، تجيء التزكية قبل العلم.. لأن العلم بغير تزكية يتحول ضد الإنسان، وليس معه.

فالذي يعلم جندياً على حمل السلاح، يجب أن يزكيه بالأخلاق قبل إعطائه البندقية، لأن السلاح بلا أخلاق، أشبه بحربة رعناء، طائشة في الهواء تطعن كل من تصادفه، دون تمييز بين المجرمين والأبرياء.

ولأن حمل السلاح تسبقه قضية، فإنه لا بد من مرافقه السلاح للأخلاق، والآداب والتربية.. وهذه هي التزكية، التي تجعل المرء لا يغرز خنجره في صدر البريء.. وإنما يشهره بوجه العدو.

ونحن حين نقرأ القرآن الكريم، نجد التزكية دائماً تسبق العلم، وذلك لسبب بسيط، هو عجز العلم، عن الوصول إلى الهدف من دون بوصلة التزكية، ونور الأخلاق.. فإذا اجتمعت الأخلاق مع العلم، كانت الحضارة وكان الإنسان الحضاري، الذي لا يتعامل مع الاستبداد.. بل يتعامل مع الحضارة.

يقول القرآن الكريم:

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة.. وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[1].. فجاءت التزكية قبل العلم في المنهج الحضاري الذي أخرجه رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ إلى العالم أجمع.

إن الأرض إذا لم تكن معدَّة، ومهيأة للزرع، فإن البذور، والحرث والأسمدة، لا تزيدها إلا خساراً.

﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا﴾[2].

ويقول في آية أخرى: **﴿ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾**[3].

لماذا؟ لأن المتلقي لا يملك القدرة، ولا الكفاءة على الانتفاع من هذا الكنز العظيم.. أشبه بماء المطر الذي ينزل علىٰ الأرض البوار.. السبخة، التي ليس فيها استعداد، لا نبات الزرع ولا إنشاء الضرع.. فبدل أن تتفجر بالعطاء الجيد، فإنها لا تعطي سوىٰ الحنظل والشوك، وحسك السعدان.. ... بخلاف الأرض الطيبة، التي ما يكاد المطر يلثمها، حتىٰ تهتز وتطرب، وتنبت من كل زوج بهيج.. وما ذلك إلا لرداءة الأولىٰ، وطيب الثانية.

إنها سنة الله في هذا الكون المترامي، العريض.. (ولن تجد لسنة الله تبديلا.. ولن تجد لسنة الله تحويلا).

ولأن الأرض تشبه في عطائها، وإمساكها، النفس البشرية، فإن الدمار الذي حلَّ بالنفوس، وغيَّر القلوب. إنما هو بسبب الذنوب، وتعاطي

---

(١) سورة الجمعة؛ آية: ٢.

(٢) سورة البقرة؛ آية: ١٠.

(٣) سورة الإسراء؛ آية: ٨٢.

المعـاصي، التي تنتشر ـ هـذه الأيـام ـ في المجتمعـات انتشـار النـار، في الحطب الهشيم.

أجـل. . ولما كـان السبب في هذا الانحـدار الذي تهـوي في قـاعـه الحضارة، يتمثل في اختـزان الرذائـل والذنـوب، في النفس الإنسانيـة، فإن القـرآن الكريم قـد حذر من مغبـة الوقـوع والسقوط، في هـذه المنحـدرات السحيقـة، وأمر أتبـاعه بـاجتناب الحسـد. . والحقـد. . والجشـع. . وبقيـة الرذائل. . إذ جعل الهلاك نتيجة طبيعية، لهذه الذنوب المكتسبة.

يقول القرآن:

﴿. . ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾[1].

ويقول في آية ثانية:

﴿وإن تبدوا، ما في أنفسكم أو تخفوه، يحاسبكم به الله. .﴾[2].

أي: إن الحسد ـ سيظهر علىٰ سلوككم سواء أبـديتموه، أو دفنتمـوه، في الصدور. . فإنه في النهاية، لا محالة يظهر. فيحاسبكم به الله.

وأفضـل طريق لاجتنـابه، هـو الابتعـاد عنـه، بفضـل تـزكيـة النفس، ومحـاسبتها، صبـاحاً ومسـاءً، من أجل تهـذيبها، بـالمحاسبـة المستمرة. . والمـراقبـة الـدائمـة التي لا تعـرف الكلل، ولا الملل. . كمـا أدبنــا ائمتنـا الطاهرون من أهل البيت ـ عليهم أفضل الصلاة، وأزكىٰ السلام.

ونضرب أمثلة علىٰ ذلك من القرآن الكريم:

نقرأ في آية:

﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا. . والباقيات الصالحات، خيـر عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾[3].

---

(١) سورة البقرة؛ آية: ٢٢٥.

(٢) سورة البقرة؛ آية: ٢٨٤.

(٣) سورة الكهف ؛ الآية : ٤٦.

والباقيات الصالحات.. هي الأعمال الصالحة التي تطهر النفس، وتجعل القلب سليماً.. ومعنى ذلك: إن التزكية لا تحصل، إلا بالعمل الصالح، الذي هو ممارسة فعلية، لشعائر الله تعالى.

يقول القرآن الكريم:

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم﴾ وذلك أنَّ المال والبنين.. خاصة بالحياة الدنيا، وأما الآخرة، فلا ينفع فيها إلا القلب السليم.. والقلب السليم هو الذي لا يسكنه الشيطان، ولا يدخله حب الدنيا.

يقول الحكماء:

(عدم الوجدان، لا يدل على عدم الوجود).. وهذه قاعدة عقلية، يحترمها كل العقلاء في العالم.. ومعناها: أنّك حين لا تجد شيئاً أمامك، فإنه لا يدل ـ بالضرورة ـ على عدم الوجود، أي: لا يعني ذلك أنَّ الشيء الذي تبحث عنه، غير موجود، وإنما معناه أنك أنت لم تجده.. وربما وجده شخص آخر.. لأنه موجود في مكان غير المكان الذي أنت فيه.

يقول القرآن الكريم:

﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه..﴾[1].

على أننا ذكرنا هذه القاعدة المنطقية، هنا، لأنها تعمق الإيمان في القلوب.. وذلك بفضل، قليل من التأمل والتفكر فيما نحن بصدده.. إذ أن عدم رؤيتنا للملائكة، مثلاً ـ الذين يكتبون بأيديهم، ذنوبنا وصلاتنا.. لا يدل على عدم وجودهم بالكامل.. وإنما يدل أننا نحن لم نرهم لأنهم يعيشون في موازين مختلفة، ومقاييس غير مقاييس الحياة الدنيا، وهكذا قل في بقية الأشياء.

(١) سورة يونس؛ آية: ٣٩.

إذاً: فهـذه قاعـدة، تجري في كـل شيء، في الحيـاة، دون استثنـاء دون تراجع في بعض الأمور.

إنها حكمة بالغة

علي عليه السلام : «من كنوز الجنة، إخفـاء العمل، والصبـر على الرزايـا، كتمان المصائب».

لأن هذه الأخلاق هي التي تطهر القلوب وتذكي النفوس.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «أعظم العبـادة أجـراً، أخفـاهـا، إنَّ فضـل عمـل لسر، على عمل الجهر، سبعون ضعفاً» ص ١٠١ القلب السليم ج ١.

نقلاً عن سفينة البحار ج ١ ص ٤٠٤

وكلما قرأنـا أحاديث من هـذا القبيل، ازداد إيمـاننا بحضـارة الإسلام والقدرة الحضارية التي يحملها الإنسان بين جنحيه والتي تجعله في معـارج الحضارة والرقي والتقدم.

وحين ينطفـىء الإيمـان في النفس فـإن الإنسـان ينـطلق مثـل البهيمـة المسعورة في الحياة لا يعرف حراماً ولا يرعىٰ حدوداً لله عز وجل.

فهذا شريـح القاضي، حين طلب منـه ابن زياد إصـدار فتوى بقتـال الحسين، أبىٰ ورفض وضرب رأسه بعلبة أقـلامه فسـال دمـه. . وفي الليـل أرسل إليه ابن زياد مالاً فأصدر فتواه لأنه باع آخرته بدنيا يزيد.

وكانت الأموال مكـدسة في بيت مـال المسلمين في الكوفـة فقد جـاء في جواهر الكـلام، : إنه كـان يختزن في بيت المـال في الكوفـة (بيت مال الكوفة) سنوياً تسعة ملايين درهم، ولم يؤخذ منها شيء أيـام معاويـة. حتىٰ الوقت الذي تـوجه فيـه، سيد الشهـداء عليه السلام إلى الكوفـة، فما كـان من ابن

زيـاد الطاغيـة إلا أن وزّع كل ما تمّ ادخاره في تلك السنـوات علىٰ جنـوده وكبار قادة الجيش الذين خرجوا لحرب الحسين.

ولكي تكون عظيماً، عظِّم شعائر الله.

لأنهـا تصمع القلب العـظيم ـ (ومن يعظم شعـائـر الله فـإنهـا من تقـوى القلوب) .

العباس بن علي

ـ ولادة حضارية

بخلاف الكائنات الحية، يولد الطفل ولادة حضارية، بمعنىٰ أنـه يأتي إلى الحياة مزوداً بأدوات وآلات وأجهزة الحضارة، حاملاً معه كـل الأسباب والعـوامل التي تصنـع منه إنسـاناً حضـارياً إذا شـاء أن يكـون حضـاريـاً. . وإشاءته هذه هي منحة وعطية من الله سبحانه كـرّم بها هـذا الإنسان تكـريماً لم يسبق لـه مثيل في تـاريخ الكـون العميق، ولهـذا كـانت إشـاءة الإنسـان منبعثة من إشاءة الله عز وجل. .

﴿**وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين**﴾. وبالفعل فقد شاء الله أن يكرم الإنسان بهذه العطية الكريمة ويجعله حراً في الحياة حتىٰ في عقيدته: فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

ويقول: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي».

علىٰ أن هذه العطية ـ عطية الحريـة ـ إنما هي أمـانة مقـدسة لا يمكن الاستهانة بها بأي حال من الأحوال علىٰ رغم النداء القرآني الذي يقول: ﴿**لا إكراه في الدين. .**﴾ لأن هـذا النداء يـوافق الفطرة، ويـوافق تركيبـة الإنسان الحرة التي ترفض أي لون من ألوان الإكراه، ومن هنا أصبح الإكراه لا يقع إلا علىٰ جسد الإنسان وليس علىٰ قلبه: «لا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»

فالبدن يعاني من الإكراه والتعذيب بينما القلب في هدوء وطمأنينة. . أقول: على رغم هذا كله. . فهو لا يعني أن الإنسان إنما جاء ليمارس حريته في الكفر والإلحاد والزندقة. . كلا ثم كلا. . وإنما الإنسان جاء ليؤدي دوراً حضارياً بالغاً. . وهو ـ أي الإنسان ـ يحمل أمانة في عنقه عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها ولذلك فإنه لكي يكتشف الواحد منا قدره لا بد له من حفظ هذه الأمانة. . والمحافظة على الأمانة تكمن في فطنة الإنسان لنفسه ومعرفته لكيفية استخدام طاقاته واستعداداته التي جاء يحملها معه إلى الحياة. من أجل تكوين مخلوق حضاري ينشر الخير والحب والسلام والعطاء في كل مكان. . وأينما حلَّ ونزل.

وحتىٰ لا يشط بنا القلم بعيداً عن هدفنا من هذه الدراسة فإنه لا بد لنا من العودة إلىٰ أصل الموضوع وهو: إن الإنسان هو المخلوق الوحيد من بين الكائنات الذي يولد حاملاً معه جميع أدوات وآلات وأجهزة الحضارة، بالإضافة إلى معرفته الكاملة في كيفية استخدام هذه الأجهزة. . وذلك أن الله سبحانه وتعالى، لم يخلق الإنسان ويتركه سدىٰ. . وإنما خلقه وزوده بوسائل العلم، وعوامل الرقي، ثم علمه كيف يهتدي إلىٰ طريق الخير. . وكيف يأخذ ويعطي في الحياة. ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدىٰ**﴾ فهذه الآية ـ وإن بدت تشير إلى المخلوقات كافة ـ إلا أنها تظل تخص الإنسان أكثر من غيره في هذا المضمار. . لأن الله سبحانه قد زود البشر بهدايتين ترشدانه إلى جادة الخير. . وطريق السعادة. . وهما: العقل والأنبياء. فالعقول حجة باطنة. . والأنبياء حجة ظاهرة. . كما أنه يوجد تقارب بل عناق بين هاتين الحجتين. .

فالأنبياء جاؤا لإثارة دفائن العقول. . والعقول دائماً تستجيب لفكر الأنبياء لأنها ركبت على الفطرة والأنبياء هم وحدهم الذين يحملون غذاء الفطرة. . الأنبياء وأوصياؤهم من الأئمة المعصومين ـ عليهم أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام.

ولكي نعرف كم هو غذاء الفطرة مهماً ومطلوباً بالنسبة للإنسان السوي، فإنه لا بد لنا من اكتشاف دور الأم واهتمام الإسلام البالغ بهذا الدور التربوي الحضاري.

حجر الأم له مكانة كبيرة، ومنزلة عظيمة في الإسلام في مجال التربية والإعداد الحضاري، فرعاية الأم لطفلها يعتبر من أهم أعمدة التربية التي تقوم عليها الحضارة الإنسانية، وما حجر إسماعيل الذي نطوف حوله في البيت الحرام، في الليل وفي النهار، إلا مثوىٰ هاجر أم إسماعيل الذبيح.. أي أن حجر إسماعيل هو قبر أمه هاجر، وإنما أطلق عليه إسم الحجر وذلك إكراماً وإعظاماً لمنزلة الأم، والدور الذي تؤديه في هذا المسعىٰ التربوي الكبير.

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

هكذا قال الشاعر، وإن من الشعر لحكمة.

ونحن في حديثنا هذا عن الأم ودورها نستعرض النقاط التالية:

أولاً ـ لكي نستوعب الفكرة، لا بد من الإشارة إلى أن تكوين الإنسان إنما يكتمل في مرحلتين أساسيتين: مرحلة الحمل، ومرحلة الرضاعة، وقد ذكر القرآن الكريم هاتين المرحلتين في آية واحدة قال فيها: ﴿**وحمله وفصاله ثلاثون شهراً**﴾ فالحمل فترة تسعة أشهر وهي المدة التي يستغرقها الجنين في بطن أمه، بينما الفصال يعني فترة الرضاعة والتي حددها القرآن الكريم بحولين كاملين، علماً أن الآية الكريمة هذه أشارت إلى أقل فترة في الحمل وهي ستة أشهر لأن فترة الحمل تتأرجح بين ٦ إلى ٩ وربما ١٠ أشهر كما هو معروف في كتب الفقه الإسلامي، وطبعاً هنا لست في معرض طرح الجانب الفقهي من هذه المسألة، وإنما موضوع الفقه موكول إلى الفقهاء وكتب الفقه، وإنما أردت فقط أن أشير إلى حقيقة وهي أن الطفل يمر بأهم مرحلتين في حياته وهي مرحلة الحمل في بطن الأم، ومرحلة

الرضاعة في حجرها.. ولكل واحدة دور كبير لا يستهان به، فالطفل في فترة الحمل يتم تكوينه جسدياً، في حين أن تكوين الطفل النفسي لا يكتمل إلا في حجر الأم لأن الأم حين ترضع ولدها فإنها تقوم بالإضافة إلى تغذيته بالحليب، تقوم بتغذية روحه ونفسه، وعقله وقلبه.. بل أكثر من ذلك.

فإن حجر الأُم يقوم بصناعة الطفل صناعة ربانية لا بديل عنها، وليس هناك من يقوم بهذا الدور، لا دور الحضانة، ولا الروضات، ولا المدارس الخاصة التي تعنىٰ بهذا الجانب، فقد أثبتت الأرقام العلمية التي وردت في هذا المجال أنَّه لا بديل لحجر الأم في تربية الطفل وتنشئته نشأةً ربانية أو قُل صناعة ربانية قائمة علىٰ غذاء الفطرة السليم الصحيح.

ونحن حين نقرأ القرآن الكريم نجد الإشارة واضحة إلىٰ هذا الجانب، ففي قصة موسىٰ ـ عليه السلام ـ نجد الحق سبحانه وتعالىٰ يخاطبه بقوله:

﴿وألقيت عليك محبة مني، ولتصنع علىٰ عيني.. إذ تمشي أُختك فتقول هل أدلكم علىٰ من يكفله، فرجعناك إلى أُمك كي تقر عينها ولا تحزن﴾[1].

إذن: فالصناعة، الحضارية في تربية الطفل والتي أشار إليها القرآن الكريم بقوله: **﴿ولتصنع علىٰ عيني﴾** لا تتحقق ولا تكتمل إلا في حجر الأم.. لأن حجر الأم هو وحده الذي يصنع الإنسان العظيم.

الإنسان الشجاع.. العابد.. الزاهد.. الإنسان الذي لا ينحني ولا يركع لغير الله.

---

(١) سورة طه؛ الآيتان: ٣٩ ـ ٤٠.

الإنسان العزيز الذي يرفض الذل وينبذ الهوان.. وقد أشار الإمام الحسين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ إلىٰ هذا الجانب التربوي العظيم بقوله: «ألا وأن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين.. بين السلة والذلة.. وهيهات منا الذلة يأبىٰ الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبية من أن نؤثر طاعة اللئام علىٰ مصارع الكرام..»

أنظروا إلىٰ كلمة أبي الأحرار سيد الشهداء الحسين.. إنه يقول: يأبىٰ الله لنا ذلك.. أي أن الله يأبىٰ لنا أن نذل ونخزىٰ.. «يأبىٰ الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وطهرت..»

والحجور هنا جمع حجر.. وهو حجر الأم.. أي أن الأم الصالحة المؤمنة التي تخاف الله وتخشاه تربي أولادها تربية طاهرة عظيمة.. تربيهم علىٰ العزة والكرامة كما صنعت بنا أمنا فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها حيث قامت بتربيتنا علىٰ النور والإيمان والشجاعة.. والعزة والكرامة.. لقد تلقينا تربية من أقدس حجر في الكون.. ألا وهو حجر الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها.. وقد تطرق جابر بن عبد الله الأنصاري لهذا الجانب في زيارته لقبر الحسين يوم الأربعين حينما ألقىٰ بنفسه علىٰ قبر الحسين بن علي منادياً: يا حسين.. يا حسين.. يا حسين.. ثم قال: حبيب لا يجيب حبيبه.. وأنّى لك بالجواب وقد شحطت أوداجك علىٰ أثباجك، وفرّق بين رأسك وبدنك.. أشهد أنك ابن خير البنين.. وابن سيد الوصيين.. وابن حليف التقوى وسليل الهدىٰ.. وخامس أصحاب الكساء وابن سيد النقباء وابن فاطمة سيدة النساء (ثم قال):

ومالك لا تكون هكذا.. وقد غذتك كف سيد المرسلين. وربيت في حجر المتقين ورضعت من ثدي الإيمان وفطمت بالإسلام فطبت حياً وطبت ميتاً..».

إذن: فجابر أكد هنا أن الحسين كان قد تربىٰ في حجر المتقين، ورضع من ثدي الإيمان وفطم بالإسلام. .

. . علىٰ أن هذا الكلام إنما هو إشارة صريحة إلى أهمية الدور التربوي في حجر الأم وأهمية صلاح الأم في تكوين شخصية الطفل.

ومن هذا المنطلق نجد أن الإمام علياً أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ قد هيأ الأجواء التربوية لولده أبي الفضل العباس من قبل أن يولد أبو الفضل وذلك عندما قال لأخيه عقيل:

أنظر لي امرأة قد ولدتها الفحولة من العرب لأتزوجها فتلد لي غلاماً فارساً. . فقال له: «تزوج بأم البنين العامرية (الكلابية) فإنه ليس في العرب أشجع من أبائها»[1].

ومن هذه الرواية ندرك كم هي نظرة الإسلام إلى التربية عميقة وبعيدة المدىٰ وحضارية. . فالتربية في الإسلام لا تبدأ من ساعة الولادة. . ولا من أيام الحمل. . أبداً. . كما أن منهاج التربية لا يبدأ من ساعة العقد. . ولا من ليلة الزفاف والدخلة. . وإنما تبدأ التربية من اللحظة التي تصمم فيها أن تكون زوجاً وتفتش عن شريكة حياة لك. . من هذه اللحظة. . من لحظة التصميم على الزواج تبدأ مناهج التربية مع أنَّ الإسلام يأمرك أن تفكر أين تصنع نفسك؟ أين تصنع نطفتك التي تحملها في صلبك؟

الإسلام يريد منك أن تفكر بالمرأة التي تريد أن تطلب يدها. . من هي؟ وكيف دينها. . وما هو المستوىٰ الخلقي والتربوي عندها. . فكر بكل هذه الأمور قبل أن تقدم على خطبة أية فتاة، لأنك مسؤول أمام الله عن هذه الفتاة التي ستصبح فيما بعد أماً لأولادك.

---

(١) العباس لعبد الرزاق المقرم ص ١٢ .

والويل للرجل الذي يقع اختياره علىٰ زوجة حمقاء لا دين ولا ضمير ولا وجدان. . الويل له من عذابها ومرارة الحياة معها لأنها ستصليه ناراً بتصرفاتها في الأسرة وفي الحياة الزوجية. . كما أنه في المقابل. . الويل للفتاة التي ترضىٰ برجل لا دين له ولا ضمير أن يكون زوجاً لها. . وشريكاً لها في العمر.

ومن هنا جاءت التحذيرات: «إياكم وخضراء الدمن! قيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء».

إنها جميلة. . ولكنها لا أصل لها. . ولا جذور وإنما هي تحمل الجمال من الخارج ونفسها أبشع من البشاعة. . تفتش في أعماقها فلا تلمس بصيص نور ولا حبة هدىً.

ويقول الرسول الأعظم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ :

«إياكم والتزوج بالحمقاء فإن صحبتها بلاء وولدها ضياع» لأن المرأة الحمقاء لا يمكن أن يستمر الواحد معها. . فهو إن استمر معها فإن الحياة معها جحيم لا يطاق. . وإن طلقها فإن الأولاد مصيرهم الضياع والتمزق.

ويقول في حديث ثالث:

ـ : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» أي أن عوامل الوارثة لها أثر بالغ في تكوين وتصوير شخصيته الطفل. . إنه يلتقط صفاته الوارثة من أخواله، وأجداده. . كما يلتقطها من أبويه على حد سواء.

ونقرأ في رواية وردت من أهل البيت ـ عليهم الصلاة والسلام ـ تقول: «من حق الولد على الوالد أن يختار له أُماً نجيبة» أجل إنه لعمري ـ حق عظيم. . أن يختار له أماً طيبة ونجيبة. . اختيار بعناية فائقة حتىٰ يأتي الطفل إلى الحياة مزوداً بأفضل الصفات. . وأنبل مكارم الأخلاق. . وهذا

هو ما صنعه أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ حينما خطب فاطمة أم البنين لتلد له أربعة أقمار مشرقة هم: «العباس.. وجعفر وعبد الله وعثمان..» وبالفعل فقد وقف هؤلاء الأبطال وقفة حيرت العالم وأدهشته بصدقها وحقيقتها.. وقفوا يدافعون عن الإمام الحسين سيد شباب أهل الجنة.. يدافعون عن المبادىء والقيم والأهداف التي كان يحملها الحسين في وجدانه وعلى شفتيه ويديه.. وطبعاً أبو الفضل العباس هو سيد إخوته الذين هم من أم البنين، وهو زعيمهم.. وقمر بني هاشم فقد أبلىٰ بلاءً حسناً.. ووقف يوم عاشوراء يكتب ويسجل أروع ملاحم البطولة، والأريحية والفداء من أجل الدفاع عن الحق، والعدل والحرية... والمساواة.. من أجل الدفاع عن المظلومين.. والمحرومين.. من أجل الدفاع عن المعذبين في الأرض. وبالتالي وقف أبو الفضل يناضل من أجل الدين والإيمان والعقيدة.. وقد قطعوا يمينه فقال:

والله أن قطعتموا يميني إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين نجل النبي الطاهر الأمين

أم البنين المرأة الصالحة

وعلىٰ ذكر زواج الإمام علي من أم البنين.. فقد تزوج منها بعد وفاة الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء ـ سلام الله عليها ـ كما يرىٰ ذلك بعض المؤرخين ومنهم الطبري وابن الأثير وأبي الفداء في تاريخه.. علىٰ أن قسماً آخر من أرباب التاريخ قالوا: إنّه تزوج بأم البنين بعد زواجه من أمامة بنت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وذلك وفقاً لوصية الزهراء لعلي التي قالت فيها: «تزوج من بعدي بابنة أختي أمامة فإنها تكون لولدي الحسن والحسين مثلي.. واجعل لها يوماً وليلة، وللحسنين يوماً وليلة»[1] وطبعاً كل هذا إنما حدث بعد وفاة فاطمة كما قلنا لأن الله سبحانه قد حرم النساء علىٰ علي ما دامت فاطمة موجودة»[2].

كانت أم البنين رقيقة كقبلة الطفل البريء.. وكانت صافية كسبيكة الذهب الأبريز.. كان إيمانها عميقاً مثل البحر.. ودافئاً كضوء الشمس..

---

(١) العباس للمقرم ص ١٣٢ نقلاً عن مناقب ابن شهرآشوب ج ٢ ص ١١٧ وبقية الكتب التاريخية.

(٢) العباس للمقرم ص ١٣٢ ومناقب ابن شهرآشوب ص ٩٣ ج ٢.

فقد كانت من معادن العلم والنور والمعرفة وقد أحسن أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ في اختيارها أماً لولده أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ .

وكانت لها منزلة كبيرة عند الحسن والحسين وعند زينب العقيلة. . وقد زارتها زينب الكبرىٰ بعد وصولها المدينة تقدم لها العزاء بمصرع أولادها الأربعة. . كما كانت زينب ـ سلام الله عليها ـ تتعهد زيارة أم النبين في كل فرصة تسنح لها وخصوصاً في المناسبات الدينية مثل أيام الأعياد حيث كانت تقوم زينب بزيارتها مع مجموعة ولمة كبيرة من النساء والفتيات المؤمنات.

«وبلغ من عظمتها ومعرفتها وتبصرها بمقام أهل البيت أنَّها لما أدخلت علىٰ أمير المؤمنين وكان الحسنان مريضين أخذت تلاطف القول معهما. . وتلقي إليهما من طيب الكلام ما يأخذ بمجامع القلوب. . وما برحت علىٰ ذلك تحسن السيرة معهما وتخضع لهما كالأم الحنون»[1].

وليس غريباً علىٰ امرأة مثل أم البنين إن تقوم بهذا الدور الحضاري في معاملتها للحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة. . فأم البنين استضاءت بنور علم الإمام علي، وأخذت منه الأدب والأريحية والوفاء، هذا بالإضافة إلى أصالتها وعمق إيمانها وأخلاقها. وناهيك بمن تكون زوجة لبطل الإسلام الخالد، كيف لا تتأثر به. . وتلتصق بروحه وأخلاقه ومبادئه ولذلك يوم رجع الناعي ينعىٰ الحسين إلى المدينة كانت أم البنين في طليعة المستقبلين لبشر بن حذلم وكانت تحمل علىٰ كتفها طفلاً صغيراً لولدها أبي الفضل العباس كان قد تركه عندها لأسباب وظروف اقتضت ذلك أقول: كانت أم البنين في أول الناس الذين خرجوا لاستقبال بشر بن حذلم وهو ينادي برفيع صوته:

---

(١) العباس للمقرم ص ١٣٣.

يـا أهـل يثـرب لا مقـام لكم بهـا قتل الحسين فـادمعي مـدرار
الـجسـم بـكـربـلاء مـضـرج والـرأس منه علىٰ القنـاة يـدار

ولما وقع بصرها علىٰ النـاعي لم تسألـه عن العباس ولا عن أي واحـد من أبنائها الذين قتلوا مع أخيهم الحسين.. وإنما سألتـه عن الحسين: هل هو حي أم لا؟..

وعلت الـدهشة وجـه بشر بن حـذلم عندمـا عرف أن هـذه المرأة هي فاطمة بنت حزام العامرية وهي أم البنين بالذات كيف لا تسأل عن أولادها؟ وظن أنها لوقع الصدمـة ذهلت عن أبنائهـا فراح يعـددهم واحداً بعـد الآخر وفي كل واحد منهم كان يعزيها به ويقول لها: عـظم الله لك الأجـر بولـدك جعفر.. فتقول: وهل سمعتني أسألك عن جعفر..؟

اخبرني عن ولدي الحسين..

إني أسـألك عن الحسين.. ولم يلتفت بشـر إلى هذا المـوقف وراح يخبرها ببقية أولادها ، إلى أن وصل إلىٰ العباس، فما كاد يخبرها بقوله: يا أم البنين عـظم الله لـك الأجـر بـولـدك أبي الفضـل العبـاس، حتىٰ نـظر إلىٰ واضطراب شديد اعتراهـا في تلك اللحظة التي سمعت فيهـا نبأ مصـرع أبي الفضل العباس.. بحيث اهتز بدنها حتىٰ سقط الطفـل الصغير الـذي كانت تحمله علىٰ كتفها.. سقط إلىٰ الأرض ولـم تقو علىٰ حمله ولكنهـا جالـدت نفسها، تحاملت واستمرت في إلحاحها علىٰ بشر .

أخبرني عن ولدي الحسين هل هو حي أم لا؟

يقول بشر: وحينما أخبرتها بمقتل الحسين ومصرعه صرخت ونادت: واحسيناه واحبيب قلباه.. يا ولدي يـا حسين.. نور عيني يـا حسين.. وقد شاركها الجمع كله بالبكاء والنحيب والعويل علىٰ الحسين ولم تذكـر أبناءها إلا بعـد أن ذكرت الحسين وبكت عليـه. ثم بعد ذلـك كانت تخـرج إلى

البقيع وتخط قبوراً أربعة لأولادها وتجلس في الشمس تندبهم بصوت حزين يقرح القلوب، ويحرك المشاعر، وهي إنما تقوم بذلك لتشعل ناراً ضد بني أمية وضد الظالمين والطغاة في كل زمان ومكان. . فكانت تقول في نعيها لهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدىً وكانت تخاطب جارية لها:

لا تدعوني ويك أم البنين تذكرين بليوث العرين
كانت بنون لي أُدعىٰ لهم واليوم أصبحت ولا من بنين
أربعة مثل نسور الربى قد عالجوا الموت بقطع الوتين
يا ليت شعري ، أكما أخبروا بأن عباساً قطيع اليمن»

جدد حياتك
في رحلة العلم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ .

ويقول : ﴿كبر مقتاً عند الله ، أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ .

وفي القرآن الكريم، آيات عديدة تشير إلى الذين يحملون علماً، ولكنهم لم ينتفعوا بما يعلمون، ومثلهم في ذلك مثل الحمار الذي يحمل أسفاراً من الكتب علىٰ ظهره، ولكن دون أن يدري ما علىٰ ظهره من العلم، وذلك أن العلم يحتاج إلى طاقة خلاقة من العقل، ولأن الحمار لا يملك عقلاً، فهذا يعني أنه لم ولا ولن ينتفع شيئاً من العلم الذي يحمله فوق ظهره. . والمناسبة في المثال، هي أن العلم مكانه في القلب وليس فوق الظهر، فكان العالم الذي لا ينفعه علمه، مثله في ذلك مثل الدابة التي لا تعي من الكتب التي علىٰ ظهرها شيئاً أبداً.

وهؤلاء هم الذين فقدوا بصيرتهم، فعاشوا في ظلام. . وإن فقدان البصيرة الواعية اللماحة، حجاب طامس دون فهم الحق، بله تفهيمه.

ولذلك نجد القرآن الكريم، يركز علىٰ نقطة بالغة وهي أن فهم القرآن، واستيعاب الحياة يتوقف علىٰ شرط أساسي بالغ، وهو الإيمان بالله

وباليوم الآخر. فإن الناس الذين هم بغير إيمان بالآخرة، هؤلاء يعيشون في غطاء عن ذكر الله، وفي حجاب عن فهم القرآن الكريم، واستيعاب الحياة.

يقول القرآن الكريم:

﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾.

والحجاب المستور، هو الحجاب الغائب عن الحواس المادية، أي أنه غائب.ومستور حتىٰ عن حواسنا الخمس.. وهذا يعني أنه في عالم ميتافيزيقي، أو قل: في وراء الطبيعية، فهو موجود ولكننا لا ندركه بقوة لأنه مفصول عنا في عالم البرزخ أي أن هناك برزخاً يفصل بيننا وبين الحجاب المستور، ولذلك فإننا لا نراه بشكل مادي أو نحسه، ولكنه علىٰ رغم ذلك موجود، ويحجز الإنسان غير المؤمن عن فهم القرآن واستيعابه.

يقول محمد الغزالي في كتابه جدد حياتك:

«وإذا شرحنا وظيفة الفطرة في تعرف الحق وتعريفه، فيجدر بنا أن ننبه إلىٰ أمر آخر، هو أن كثرة البضاعة من نصوص السماء لا تغني فتيلاً في نفع صاحبها، أو في نفع الناس، بما عنده إذا كان ملتاث الطبيعة مريض الفطرة،... ما قيمة المنظار المقرب أو المكبر لدىٰ امرىء فقد بصره؟.».

إن فقدان البصيرة الواعية اللماحة، حجاب طامس دون فهم الحق بله تفهيمه، ثم يمضي في ضرب الأمثلة في كتابه: جدد حياتك ص ٦ فراجعه للفائدة.

اذا ظهرت البدع

فكرة:

نقرأ في الحديث أنه: «إذا ظهرت البدع... فعلىٰ العالم أن يظهر علمه، وإلا فعليه لعنة الله». والبدعة إنما تأتي في التحليل والتحريم، فعندما يحرمون حلال الله، ويحلون حرامه، فهنا تكثر البدع وتنشط ويلقى سوقها رواجاً منقطع النظير.. والواجب على العالم المسؤول أن يقف بوجه هذه البدعة، وذلك بإظهار علمه ونشره على الناس حتىٰ يعرف الناس أن هذه بدعة وليست من الإسلام في شيء.. وإلا فإن الناس يعتبر ونها من الإسلام وتمشي عليهم الأمور.. وإنما تلتبس عليهم ـ أي على الناس ـ لأنها تنطرح مرتدية ثوب الإسلام، وهذا هو ما نطلق عليه إسم الشبهة، كما قال علي أمير المؤمنين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ : «وإنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق».

وممكن أن تكون البدعة عارية لا ترتدي أي ثوب إسلامي قط، وإنما يطرحها الطغاة وأعداء الحرية هكذا كما هي ومع ذلك يتقبلها الناس بفعل أبواق الإعلام المضاد، والتعتيم الإعلامي المعصور، الموجه الذي يحسن القبيح، ويقبح الحسن يصور الأقزام على أنهم أبطال، ويرسم صوراً يستوحش منها الناس عن أبطالهم.. كما يصنع التاريخ أحياناً حيث يجعل من الجلادين علماء مفكرين، ويصنع من الأبطال الأوفياء خونة أدعياء.

علىٰ كـل حال. . فـالمهم هنا هـو أن يقف العالم، ورجـل الفكـر، والـوعي، بوجـه البدعـة وذلك عن طـريق نشر العلم والنـور، والوعي على النـاس ليخـرجهم من ظلمـات الجهـل إلى نـور العلم، والمعـرفـة. وهـذا بالضبط ما صنعه أبو الفضل العباس ـ عليه السلام ـ في الـدفاع عن الـدين والعقيدة وعن إمـام صادق اليقين هـو حجة الله في الأرض وأبـو الأحرار أبـو عبد الله الحسين ـ عليه السلام ـ حيث تـظافرت أبـواق الدعـاية تبث سمـومها ضـد الحسين وضـد الدين والعقيـدة فقد انـطلقت ألسنة الأمـويين وزعيمهم يـزيـد الفسق والفجور، تنشر البدع والضلالات في صفوف الناس. . وتصف الحسين وهو ابن النبي وريحانته من الدنيا. . راحت أبواق الباطل تصفه بـأنه خـارجي لا علاقة له بالإسلام والعقيدة!!

وهنـا سجل أبـو الفضل العبـاس أروع مواقف البـطولـة التي يسجلهـا عالم، رباني في الدفاع عن الحق والحرية والعدالة الإجتمـاعية. . وعن كـل شعـائـر الـدين المتمثلة في الإمـام الحسين ـ عليه السلام ـ من أجـل ذلـك ـ كـان العباس يقول حينما قطعوا يمينه وشماله ـ :

والله لـو قـطعتـم يـميـنـي ... إني أحـامي أبـداً عن دينـي
وعـن إمـام صـادق اليـقيـن ... نجـل النبي الـطاهـر الأمين

ونجد الأريحية والإيمـان والإيثار تتجلىٰ بـأنصع صـورها في شخصيـة أبي الفضل العباس، عنـدما يمتنـع عن شرب المـاء ـ وهو في منتهىٰ الـظمأ وفي غاية العطش ـ مواساة بالإمام الحسين الغريب العطشان. . فيـرمي المـاء من يده ثم ينشد مخاطباً نفسه:

يـا نفس من بعـد الحسين هـوني ... وبـعـده لا كـنـت أو تـكـونـي
هـذا الـحسيـن وارد الـمـنـون ... وتـشـربـيـن بـارد الـمـعـيـن
هـيهـات مـا هـذا فـعـال ديني ... ولا فـعـال صـادق الـيـقـيـن

ونحن نعرف أنه اغترف من الماء ثم رماه من يده ولم يذق منه حتىٰ قطرة واحدة.. وتفسير ذلك: أنه أراد أن يسجّل أعظم درس في الوفاء والنصيحة لخلف النبي المرسل والسبط المنتجب والدليل العالم وهو الإمام الحسين بن علي ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ.

أبو الفضل العباس
بطل العلم والجهاد

جاء في التاريخ الصحيح: أن أبا الفضل العباس عليه السلام كان من كبار فقهاء أهل البيت وعلمائهم وعظمائهم، وكان ناسكاً عابداً ورعاً.. يبدو بين عينية أثر السجود، وكان وجهه من الجمال كفلقة القمر ليلة البدر، يعلوه نور لم يغير ولم يقلل القتل منه شيئاً.

هكذا جاءت مواصفاته علىٰ لسان الشيخ عبد الحسين الحلي وهو مؤرخ قدير.. كما أنه ورد عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ كلمات في حق أبي الفضل العباس عليه السلام ومنها: «أبو الفضل زّق العلم زقاً».

ولا غرابة في ذلك أبداً، فأبوه علي أمير المؤمنين باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي قال فيه:

«أنا مدينة العلم وعلي بابها»

وهو يقول: «علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف ألف باب».. وكلمة ثالثة للإمام علي يقول فيها:

«سلوني قبل أن تفقدوني.. سلوني عن طرق السماوات أنا أعلم بها من طرق الأرض..»

فإن الذي يتربىٰ في حجر أب كعلي فإنه لا شك يصبح عالماً نحريراً بطلاً في العلم والجهاد والعقيدة. . وهذا ما نلمسه في السيرة الذاتية لقمر بني هاشم العباس بن علي ـ عليه السلام ـ إنه نهل العلم من بحر أبيه ومن أخويه الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة حيث كان ملازماً لهما بعد مصرع أبيه علي عليه السلام .

وقد أشار الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ إلىٰ هذا الجانب في حياة أبي الفضل العباس عليه السلام بقوله الذي جاء في الزيارة زيارة العباس وهي من تأليف وإملاء الإمام الصادق:

«لعن الله أمة استحلت منك المحارم، وانتهكت في قتلك حرمة الإسلام» وحرمة الإسلام لا تنتهك بقتل أي مسلم مهما كان عظيماً، ومهما كان أثره في الإسلام مشكوراً علىٰ حد تعبير المرحوم السيد المقرم ـ وإنما تنتهك الحرمة بقتل العالم، لأن العالم إذا مات أو قتل ترك جرحاً في القلوب لا يندمل . . وثلم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء.

أما أنه لماذا لم يظهر علمه بشكل واضح لدىٰ الجميع، فإن الجواب واضح أيضاً وصريح وهو أن أبا الفضل كان معاصراً للأئمة المعصومين وهم على التوالي ثلاثة: أبوه علي، وأخواه الحسن والحسين عليهما السلام ـ ووجود المعصوم يغطي بطبيعته الشخصية التالية له ويحجب سواه من الظهور وهذا واضح ومعروف لدى أهل الذوق والنطفة والنظر. وذلك أن الإمام المعصوم له شخصية قوية ومؤثرة في الأوساط العلمية والأدبية والحضارية، وعلى سبيل المثال يقول الإمام الصادق عليه السلام .

«ما مشىٰ الحسين عليه السلام بين يدي الحسن عليه السلام قط ولا بدره بمنطق إذا اجتمعا تعظيماً له» وإذا كان الحال بين الحسن والحسين هكذا وهما إمامان إن قاما وإن قعدا. . فما بالكم بأبي الفضل العباس وكيف يستطيع أن يملي علمه مع وجود أخيه الحسين عليه السلام ، . . على أن هذا لا يعني بالضرورة ـ أنَّ

أبا الفضل لم يتحرك في هذا المجال ولم ينشر العلوم الإسلامية لأنه حتىٰ لو كان تلميذاً لدىٰ المعصوم فإنه يقوم بنشاط حضاري مميز في نشر العلم والمعرفة كما حصل لتلامذة الأئمة مثل تلامذة الإمام الباقر والصادق أمثال هشام وأبو حمزة وأبان بن تغلب ومؤمن الطاق، وأبو بصير وكميل وأبي ذر وسلمان، والمقداد وأمثال هؤلاء الأبطال الذين ملأوا الدنيا علماً ونوراً وهم لا زالوا في طور التلمذة والتعليم فكيف بأبي الفضل وهو في حجر العلم وركن الحضارة؟ لا شك أنه استطاع أن يقوم بدور كبير في هذا المجال ولكنه لم يصل إلينا منه شيء لأنه كان معاصراً للمعصومين أي أنه كان ملازماً لهم ودائماً شخصية المعصوم الأخ تحجب شخصية الأخ غير المعصوم.. وهذا هو بالضبط ما أردت أن أقوله وأسجله هنا لندرك كم هو أبو الفضل العباس عالماً وعظيماً ومجاهداً في الحق والحرية والعدل والمساواة.. وقد قام بأروع وأكبر دور في التضحية والفداء حتىٰ أننا نقرأ في زيارته الواردة عن أبي عبد الله الصادق:

«أشهد لقد نصحت لله ولرسوله ولأخيك، فنعم الأخ المواسي فلعن الله أمة قتلتك ولعن الله أُمة ظلمتك ولعن الله أُمة استحلت منك المحارم وانتهكت حرمة الإسلام فنعم الصابر المجاهد المحامي الناصر والأخ الدافع عن أخيه المجيب إلىٰ طاعة ربه».

التواضع سمة بارزة في العالم

وكان أبو الفضل العباس ـ عليه السلام ـ متواضعاً عالماً حليماً لا يغضب إلا لله ولا يرضىٰ إلا لله سبحانه فهو قطعة من نور أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام .

أما تواضعه فهو حق لأن الأغصان المحملة بالثمر تكون قريبة من الأرض. . والضرع المليء باللبن يدنو من الأرض في تواضع.

وهذه قاعدة معروفة لدىٰ الجميع. . فالسنابل المليئة بالعطاء تنحني في تواضع بينما السنابل الفارغة تشمخ في الهواء.

«ملأى السنابل تنتحني بتواضع والفارغات رؤوسهن شوامخ»

وما ينطبق علىٰ النبات والأحياء، ينطبق على الإنسان أيضاً. . فنجد الإنسان الفارغ تائهاً في دنيا الكبر والزهو والغرور في حين أن الإنسان المشحون بالعلم والإيمان والأخلاق يكون متواضعاً يقرب المساكين ويعظم أهل الدين ويحمل الخير لكل الناس ويسعىٰ في قضاء حوائجهم وهذا بالضبط ما كان يصنعه أبو الفضل العباس عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام. وهذه تصدر عن قوة لا عن ضعف لأن المؤمن تجد له حزماً في لين، وقوة في يقين.

جاء في زيارة العباس عليه السلام :

أشهد أنك لم تهن ولم تنكل وإنك مضيت علىٰ بصيرة من أمرك مقتدياً بالصالحين ومتبعاً للنبيين فجمع الله بيننا وبينك وبين رسوله وأوليائه في منازل المجتبين فإنه أرحم الراحمين».

لأن العقيدة القوية الصلبة هي ضد الوهن والذل والنكال.. وقد أشار الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام إلىٰ هذا الجانب في شخصية أبي الفضل جانب القوة والمنعة والصلابة فقال:

«كان عمنا العباس بن علي ـ عليه السلام ـ نافذ البصيرة صلب الإيمان جاهد مع أخيه الحسين وأبلىٰ بلاء حسناً حتىٰ قطعت يداه فأبدلهما الله تعالىٰ بجناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنة».

وقال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في حق أبي الفضل العباس:

«وإنَّ لعمي العباس بن علي منزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة..».

ونحن من خلال هاتين الكلمتين ندرك كم هو أبو الفضل العباس عظيماً وعالماً وكبيراً.

الفضائل ترفع الإنسان.. في حين أن الرذائل تسقطه.. وهذه حقيقة ليس فوقها غبار، فالنفس تستمد طاقتها من مكارم الأخلاق: من الشجاعة، والكرم والنجدة، والأريحية، وحب الخير للناس.. بينما تتضاءل قوة النفس حينما تقترب من الرذائل والشيطان.. فكما أن الطعام الجيد يصير طاقة جيدة في البدن؛ كذلك الأخلاق الجيدة تصير طاقة جيدة في النفس فتصبح نفس الشخص عظيمة وكبيرة ومحترمة.

ومن هذا المنطلق، فإنه كلما ازداد المرء عشقاً للفضائل والمكارم. . ازداد رفعة وعظمة وأعطاه الله سبحانه إيماناً يجد حلاوته في قلبه. . .

علىٰ أن الإنسان الذي يعشق الفضائل ويتفاعل معها، يحس إحساساً عميقاً بالسمو والكرامة والعزة. .

فتهون عليه التضحية في سبيل مبادىء الحق والحرية، والعدالة الاجتماعية. . وقد كان أبو الفضل العباس ـ عليه السلام ـ قمة مضيئة في آفاق الدفاع عن الحق والحرية.

الشجاعة والفداء

أما شجاعته فقد أخذها من أبيه علي أمير المؤمنين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام. فقد ضربت رقماً قياسياً في البطولة والفداء.. إذ لم يحدث أن سجّل التاريخ أن بطلاً مثقلاً بالهموم والأحزان قد أوقع هزيمة في صفوف العدو كما صنع أبو الفضل العباس عليه السلام .

ليس هناك بطل شجاع يرىٰ أمامه أطفالاً صغاراً يتصارخون من العطش دون أن يفت ذلك في عضده ويفقده صبره وتوازنه.. غير أن أبا الفضل كان كلما مرت به المحن يوم الطف ازداد ثباتاً وعزماً علىٰ المضي في طريق الجهاد والحق والفداء.. فقد مثل الأخوة الإسلامية الصادقة بأروع ألوانها.

يده قبّلها أهل العصمة

جاء في التاريخ أنَّ أربعة من الأئمة المعصومين قبلوا يد أبي الفضل العباس.. وهم: الإمام علي والحسين، وزين العابدين والإمام الباقر عليهم أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام. ومهما يكن من أمر فإن واحداً منهم علىٰ الأقل كان قد قبل يد العباس كما جاء ذلك في قصة معروفه حدثت يوم مولد العباس عندما أتت به أمه تحمله ووضعته بين يدي أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام الذي ما إن وقع بصره على ولده الطفل الصغير هذا حتىٰ راح يقلب كفيه ويقبلهما ثم انهمرت الدموع من عينيه! وهنا تدخلت أمه أم البنين متسائلة عن سبب بكاء علي؟ فأخبرها بما سوف يجري علىٰ هاتين الكفين من البلاء في سبيل الله، فبكت هي الأخرىٰ عند سماع الخبر، ومن ذلك اليوم قامت بتربيته وإعداده إعداداً بطولياً ليقوم بهذا الدور الذي ينتظره في الغد.. وطبعاً كانت تقوم بدورها كأم ناجحة في تربية أبنائها الذين هم يتلقون التربية الصحيحة من أبيهم الإمام علي ـ عليه السلام ـ.

والرواية تقول:

«إن أم البنين عليها السلام رأت أمير المؤمنين علياً عليه السلام، في بعض الأيام أجلس أبا الفضل العباس في حجره وشمّر عن ساعديه، وقبلهما وبكىٰ

فأدهشها الحال.. لأنها لم تكن تعهد صبياً بتلك الشمائل العلوية، ينظر إليه أبوه ويبكي من دون أن يكون ثمة سبب ظاهر.. ولكن حينما أوقفها أمير المؤمنين علي عليه السلام على غامض القضاء وما يجري على يديه - أي أبو الفضل - من القطع في نصرة الدين.. في نصرة الحسين عليه السلام بكت وجرت عبرتها وشاركها كل من كان في الدار في البكاء والعزاء»(١).

على أن مثل يد أبي الفضل هي التي يجب أن تقبل وتحترم.

لماذا؟

لأنها قطعت من أجل الدين، وفداء للدين..

وهذا هو الميزان الذي يكشف عن حقيقة الناس والأيدي، فاليد التي تناضل من أجل الدين والعقيدة ومبادىء الحق والعدل والحرية هي التي تستحق التكريم والتقبيل.. وأما الأيدي الأخرى التي هي ضد هذا الخط فإنها لا تستحق أي تكريم بل بالعكس تستحق التوهين والإذلال.. وإن بدت الصورة اليوم مقلوبة بالعكس تماماً.. يقول الشاعر:

ويد تكبل وهي مما يفتدى ... ويد تقبل وهي مما يقطع

«كان العباس وسيما جميلاً يركب الفرس المطهم ورجلاه يخطان في الأرض، ويقال له: قمر بني هاشم لجماله وكثرة النور في وجهه.. وقد وصفه الرواة: بأنه كان بين عينيه أثر السجود كما مر علينا منذ قليل»(٢).

---

(١) من مقتل العباس للمقرم.

(٢) راجع مقتل العباس للمقرم ص ١١٥.

(١)

اشرب الماء واذكر عطش الحسين

إن الذي يذكر عطش الحسين عند شرب الماء له أجر عظيم فما بالكم بالذي يمتنع عن شرب الماء مواساة بالحسين ـ عليه السلام ـ .

لا شك أنّ له منزلة عظيمة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة.

وعلىٰ فكرة امتناع العباس ـ عليه السلام ـ عن شرب الماء تأسياً بأخيه أبي الأحرار أبي عبد الله الحسين. جرىٰ حوار بيني وبين أحد الأصدقاء حول هذا الموضوع بالذات أي حول ذكر عطش الحسين عند شرب الماء وكم له من الثواب العظيم وقد أثبتُّ له أن الأئمة سلام الله عليهم أجمعين قد أكدوا هذا المعنىٰ، وركزوا علىٰ تعظيم هذا الشعار وهو ذكر الحسين عند شرب الماء إذ أن له من الأجر العظيم ما لا يحصيه إلا الله وحده.. وإليكم هذه الكلمة التي أكتبها هنا بعد انفضاض المجلس الذي ضمني والصديق المذكور.

(٢)

اشرب الماء واذكر عطش الحسين

ضمني لقاء مع صديق طال شوقي لرؤيته، وعظم حرصي على الانتفاع بمجلسه، فهو من الوزن الثقيل في الأدب، والعلم.... وكان ذلكم اللقاء، من أروع لقاءاتي علىٰ الإطلاق.. فقد عرفت من خلاله أشياء كانت غامضة عليَّ، وكان فهمها يحتاج مني إلى دراسة، وطول وقت، ولكن بفضل تلك الجلسة عرفتها، وفهمتها بل كانت بمثابة المفتاح السحري الذي أضعه علىٰ كل مسألة يستعصي حلها عليّ فتنفتح من فورها ومن دون أية مقاومة.

طبعاً القضايا التي بحثناها، كانت كبيرة، وكثيرة ومتنوعة، بدأت بقضايا الأديان والعقيدة، ومرت بالقوانين والمناهج الإنسانية، وانتهت بالطرق الكفيلة بنجاح وسعادة الإنسان في الحياة.

ولكن برزت مسألة من بين تلك المسائل أبعدتني بعض الشيء عن صديقي لولا تداركه إياها بالانصياع للواقع.. وإنما أقول: أبعدتني أي أبعدت فكرة التكامل التي طبعتها في رأسي عن هذا الصديق ولكنه بالتالي عالج القضية في عفوية وتلقائية حتىٰ أعادني إلى مكانتي السابقة من الإعظام والإكبار له .

وفي خلال حديثنا سألني هذا السؤال:

لماذا البكاء علىٰ الحسين بهذا الشكل، ودائماً؟.. فقلت: إن البكاء دليل الحب والطاعة، والإخلاص، هذا بالإضافة إلى أن البكاء صفة ملازمة لكل كبير القلب عظيم النفس، حتىٰ كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم تدمع عينه ويحزن قلبه.. وكان الإمام علي عليه السلام غزير الدمعة سريع العبرة.. هذا بالإضافة إلى أن القرآن الكريم، كان قد أكد على هذا المعنىٰ أي البكاء وجعله من أهم صفات النبي يعقوب عليه السلام حيث يقول: ﴿**وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم..**﴾ ثم يفسر هذا الحزن والبكاء بأنه صبر جميل.. فيقول: «وتولىٰ عنهم وقال: يا أسف علىٰ يوسف وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم... ويقول: قال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل».

ثم تابعت أقول لصديقي: فإذا كان القرآن الكريم يطلق على البكاء صفة الصبر الجميل، فما لنا لا نبكي، وما لنا لا نحزن، ونحن نعرف أن البكاء هو سلاح الإنسان للمؤمن لأنه يرفعه إلى أعلىٰ درجات المسؤولية، والشعور العميق بمبادىء وأهداف الحياة الكريمة..؟..

ومن هنا يقول علي عليه السلام: «أرحم من رأس ماله الدعاء، وسلاحه البكاء..»

فجعل البكاء من أقوىٰ أسلحة المواجهة بين الحق والباطل.. علماً بأن هذا لا يعني بالضرورة، أن نترك إعداد العدة ونلتزم البكاء بدلاً من العدة..؟ أبداً أن هذا ليس هو المعنىٰ الذي يريده الإسلام.. فالإمام علي - عليه السلام - الذي يقول: إن البكاء سلاح المؤمن، نجده هو نفسه يخوض الحروب.. ويشهر السيف بوجه الظالم ويقارع الظلم أياً كان نوعه، دون هوادة، ولا مداهنة ولا مصانعة.. ونفس الشيء بالنسبة ليعقوب النبي الذي كان يقارع الظلم، ويجاهد الظالمين، والمنافقين، وكان غليظاً عليهم، هو نفسه نجده يبكي ونجد الحزن ملازماً له..

ثم واصلت أقول وصديقي تطلع في وجهي وقد أخذته الدهشة لأنه لم يكن يسمع بهذه الأفكار من قبل.. ولذلك صار مشدوداً لهذا الموضوع وصار يطلب المزيد بلهفة، ويريد أكثر من ذلك حتىٰ يستوعب البحث كله.. أقول: ثم واصلت أقول لصديقي:

أتدري كيف تتكون اللآلىء في أعماق الماء؟ أجابني بالنفي.! فقلت له: أتعرف حيوان الصدف البحري؟ قال: نعم..

قلت: هناك في أعماق البحار يوجد حيوان الصدف البحري، وهو يجري في أعماق الماء مع الموج في انسياب وحرارة.. ولكنه في بعض الأحيان تصادفه صخرة فتجرحه، أو يصادفه جسم غريب فيحدث شقوقاً صغيرة ناعمة في بدنه، وهنا تبدأ ذرات الرمل بالدخول في بدنه من خلال تلك الشقوق، فإذا دخلت ذرة واحدة من الرمل في الجرح، كونت عنده أي عند ذلك الكائن البحري، درة ثمينة تدهش العالم بجمالها، وتذهل العقول بثمنها!!.

والآن هل عرفت كيف تتألف الدرة؟

قال: بلىٰ.. قلت: إذن: فيمكن القول أن الدرة الثمينة، ما هي إلا ابنة الألم.. فإذا كانت الدرة ابنة الألم.. وإذا كانت الدرة تتكون بفعل الألم، فإن القلوب العظيمة تتكون بفعل الدموع.. لأن الدمعة تكوِّن القلب العظيم، وتصنع النفس العظيمة، تماماً كما أن الجرح في جسم الصدف يكوّن أثمن اللآلىء، وأرقىٰ الدر في العالم.

وكنت أقول كلامي هذا، وعيناي شاخصتان إلى وجه صديقي العالم الذي كان في غاية الإصغاء لي.. وأنا أتصفح ملامح وجهه.. وقسمات صوته..

فقال لي: هذا صحيح.. ولكن قل لي: هل يوجد واحد من الأئمة

كان يبكي على الحسين ليل نهار أو أنه كان يبكي علىٰ الحسين في كل يوم مرة أو أكثر؟ . .

أجبته في هدوء: إن نظرة واحدة تلقيها علىٰ حياة أهل البيت تريك بوضوح أنهم كانوا يبكون على الحسين في اليوم أكثر من مرة. . ولنبدأ من الرسول الأعظم محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ حيث ذكر التاريخ، وجاء في كتب السيرة، أنه ـ سلام الله عليه. ما نظر إلى الحسين مرة إلا واغرورقت عيناه بالدموع، هكذا كان يذكر المؤرخون، وأرباب السير، أن الرسول كان إذا نظر إلى الحسين، فاضت عيناه بالدموع. . وكان يقول: إن الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تطفأ أبداً. . أو قال: لا تطفأ إلى يوم القيامة. .

وهذا نفسه نجده عند الإمام علي ـ عليه السلام ـ حيث كان يبكي أغلب الأوقات التي يذكر فيها مصرع أبي عبد الله الحسين ـ عليه السلام ـ .

ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى الحسن وحتى الحسين نفسه. . وأما الإمام السجاد، ـ عليه السلام ـ فبكاؤه كان واضحاً وأشهر من الشمس في رائعة النهار، أو رابعة النهار.

والإمام الباقر كذلك. . وإذا رأينا الإمام الصادق، وجدناه باكياً علىٰ جده الحسين، وليس فقط كان يبكي بل كان يأمر أهله وأصحابه بالبكاء على الحسين كما كان يصنع الإمام الكاظم، والإمام الرضى حيث إذا دخل عليه شاعر أو خطيب أمره بالإنشاد وذكر الحسين وإذا دخل عليه رجل من سائر الناس، قرأ الإمام الرضى بنفسه مصيبة الحسين، كما صنع من الريان بن شبيب إذ قال له: يا ابن شبيب إن كنت باكياً لشيء فابكي لمصيبة جدي الحسين فإنه ذبح كما يذبح الكبش.

ويمكن القول ذاته بالنسبة لسائر الأئمة حتىٰ كانوا يبكون علىٰ جدهم الحسين ليل نهار. . وما ورد في زيارة الناحية المقدسة، يغني عن التحقيق، ويعد خير دليل علىٰ ذلك. . إذ جاء في الزيارة عن الإمام

الحجة ـ صلوات الله ، وسلامه عليه قوله : لأندبنك صباحاً ومساءً ، ولأبكينّ عليك بدل الدموع دماً . . » .

انظروا جيداً . . هنا . . حيث يؤكد الإمام الحجة أنه يبكي علىٰ جده الحسين كل صباح، ومساء، ويصل به البكاء إلى درجة الدموع دماً بدل الدموع ماءً.

قال لي صديقي المؤمن: هذا كله صحيح . . ولكن أريد دليلاً واحداً ليقنعني بأهمية البكاء علىٰ الحسين كل يوم، والدليل يجب أن يكون من إمام معصوم، وليس من سائر الناس أو العلماء، وأنا أُريد منك دليلاً قوياً يقنعني بذلك . . يقنعني علىٰ أن أكون من البكائيين كل يوم على الحسين عليه‌السلام ـ هذا من جانب ومن جانب آخر، فإني أريد أن أنقل هذا الفكر، وهذا الدليل الذي أطالبك به . . أريد أن أنقله إلى الآخرين لعلَّ الله سبحانه ينفعهم به إن شاء الله تعالىٰ . .

قال ذلك وأسند ظهره إلىٰ الحائط مشعلاً غليونه لأنه كان صاحب غليون وهذه الصفة هي الوحيدة التي كانت تزعجني منه . . وإلا فكل صفاته تعجبني باستثناء التدخين، وخصوصاً الغليون، لأن التدخين وممارسة شرب السجائر يؤدي حتماً إلىٰ تقليل عمر الإنسان وإلى تجميع الأمراض الفتاكة في حوزته قلت هذا استعراضاً لا حقيقة، وإلا فأنا لم أستطع أن أفصح له عن خاطري وعما يدور في نفسي من اشمئزاز شديد، ونفور أشد، من التدخين، ومن مجالس الدخان تلك المجالس التي أرىٰ فيها أعمدة الدخان تتصاعد من أفواه الرجال والنساء، تلك كانت هي أثقل المجالس علىٰ قلبي، وأوحش المجالس إلى نفسي . . المهم إني بسبب حبي له وإخلاصي له، فضلت السكوت عن التدخين علىٰ الاعتراض له.

وحتىٰ لا يفوتنا البحث لنرجع إلىٰ أصل الموضوع . . وهو: أنه طلب مني دليلاً يجعله يؤمن بالبكاء علىٰ الحسين كل يوم . . قلت له: خذ هذا

الدليل مني فإنه علىٰ ما أظن من أقوىٰ الأدلة، وأعمقها إذا لم يكن أقواها علىٰ الإطلاق.. قال: وما هو؟

قلت: هذا هو الدليل الذي طالما بحثت أنا عنه، وفتشت في كل مكان حتىٰ وصلت إليه.. إلا وهو: قول الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ: من شرب الماء وذكر عطش الحسين ـ عليه السلام ـ كتب الله له مائة حجة ومائة عمرة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

وحين يقول الإمام الصادق هذا القول فإنه لا بد وأن يكون قد طبقه هو قبل غيره... علماً بأننا ينبغي لنا أن نعرف أن قوله مائة حجة ومائة عمرة، إنما نشير إلى الحج المستحب. وليس الحج الواجب، لأن الحج الواجب هو مرة واحدة في العمر.. وهذا معروف حجة الإسلام الواجبة هي مرة واحدة لا يعاد لها شيء، فحين يقول الإمام أو أي واحد من الأئمة إنَّ شربة الماء في ذكر الحسين تعادل حجة وعمرة، أو تعادل مائة حجة ومائة عمرة إنما تقصد هذه الروايات الحج المستحب وليس الواجب، ومن هنا نعرف أن الروايات التي وردت في زيارة الإمام الحسين عليه السلام. أن زيارته تعادل حج وعمرة.. ومن الروايات ما يشير إلى أكثر من ذلك حتىٰ تصل إلى ألف حجة وألف عمرة بل ربما أكثر من ألف حجة وألف عمرة.. وإنما حصل الاختلاف في العدد ليس من قبيل عدم ضبط الروايات بل من قبيل اختلاف درجة الإيمان فكلما كان إيمان الإنسان أكثر ومعرفة بالحسين أكبر، كانت زيارته تعادل أكبر عدد من الحج، وأكثر عدد من العمرة.

وهكذا فأنا لا أريد أن أفيض في هذا الباب لأن له بحثاً مستقلاً آخراً إن شاء الله سيجيء في مكانه فلا نتعجل الأمور، وإنما نرجع إلىٰ كلامنا مع الصديق المؤمن الذي ينتظر مني دليلاً يؤكد هذا الجانب أي جانب ترجيح، البكاء علىٰ الحسين كل صباح ومساء ـ قلت له: لقد ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ قوله: «إن من شرب الماء وذكر عطش الحسن كتب الله له مائة حجة ومائة عمرة مع رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ».

ونستفيد من هذا الحديث عدة أشياء: أولاً ـ إن الإمام الصادق قوله وفعله واحد ويعتبر حجة، لأنه لا يمكن أن يقول قولاً ولا يطبقه.. وإنما لا بد له من التطبيق.

هذا أولاً ـ إذ ليس في حياة أهل البيت فسحة تدل علىٰ تخلفهم عن العمل واكتفائهم بالقول دون العمل.. بل إنهم كانوا يسارعون في الخيرات وكانوا يفعلون ما يقولون، ويقولون ما يفعلون، فليس عندهم وقت للقول فقط ولا وقت للعمل دون القول.. بل تجد العمل والقول في عناق وتلازم، وترابط كبير في هذا الإتجاه.

أقول: هذا أولاً ـ وثانياً، إن القرآن الكريم يمقت الذين يقولون ما لا يفعلون: لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون والإمام الصادق، لا يمكن أن يأمر تلامذته ويعلم طلابه، أمثال زرارة بن أعين، وأبي حمزة، وأبي بصير، وهشام، وموسى الطاق.. وجابر بن حيان وأمثال هؤلاء، أقول: لا يمكن أن يأمرهم الإمام بأمر لم يطبقه هو قبلهم.. بل كان سبّاقاً للتطبيق قبلهم بتمام معنىٰ الكلمة.. فهو حجة الله في الأرض ولا يمكن أن يقول قولاً لا يفعله هو.. وأيضاً لا يمكن أن يترك هذا الثواب العظيم ثواب مائة حجة ومائة عمرة مع رسول الله، لمجرد أن يذكر الحسين في شرب الماء..

والآن لا نناقش في عدد الحجات وعدد المرات وإنما نتحدث في أصل الموضوع، وإلا فليكن مرة واحدة،. ومرة واحدة مع رسول الله.. أيضاً هذا الثواب عظيم، وليس في إمكانه أن يتركه..

وعلى هذا الأساس، فالإمام الصادق، لا بد أن يشرب من الماء مرتين في كل يوم سواء كان صائماً أو غير صائم لا بد له من الماء مرتين علىٰ أقل تقدير، وخصوصاً وهو في المدينة في الحجاز وجو الحجاز يحتاج (صاحبه) ساكنه إلى الماء مرتين في اليوم علىٰ أقل تقدير.. ومعنى هذا أن

الإمـام الصادق يـذكـر الإمـام الحسين مـرتين في اليـوم. . والإمـام الحسين يقول: أنا قتيل العبرة مـا ذكرني مؤمن إلا وبكـى. . والإمام الصـادق هو أبـو الإيمان وقمـة المؤمنين فمن أولىٰ بـالبكـاء علىٰ الحسين منـه. . فمعنـاه أن الصادق يبكي علىٰ جده الحسيـن مـرتين في اليوم علىٰ أقـل تقديـر. . وقد ورد في الأخبار أن الإمام الصـادق، كان إذا ذكـر الحسين بكىٰ وقال: قـال الحسين بن علي: أنـا قتيل العبـرة مـا ذكـرني مؤمن إلا وبكىٰ. . فـالنتيجـة تكـون: إن الإمام الصـادق يبكي على الحسين مرتين في اليـوم. . ومن هنا نصـل إلى أكبـر الأدلـة بـل وأعـظم الأدلـة في أن الأئمــة سـلام الله عليهم يذكرون الحسين فيبكون ليل نهـار، ومن تعرف المغـزىٰ الرائع الـذي يشير إليه الإمام الحجة في قوله: لأندبنك صبـاحاً ومســاءً ولأبكين عليك بـدل الدموع دماً. . وخصوصاً إذا عرفت أن الأئمة هم نور واحـد. . لا نفرق بين أحد منهم.

كونوا للظالم خصما
وللمظلوم عونا

كان أبو الفضل العباس يمسح الدموع عن بنات رسول الله إذا بكين.. وكان ينفض الغبار عن رؤوس الأطفال الصغار إذا جاعوا أو عطشوا أو ضربتهم عادية من عاديات الزمن.

فيوم عاشوراء عندما وقف الإمام الحسين - عليه السلام - يكلم القوم ويذكرهم بأيام الله ويحذرهم غضب الجبار.. يذكرهم بالحقوق والواجبات ويحذرهم من الدنيا وما فيها.. يذكرهم بالآخرة والنعيم.. ويذكرهم - أيضاً - بأنه ابن بنت النبي.. بل هو ابن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكان يومها يلبس جبة النبي وعمامته.. أقول: عندما وقف الحسين يكلم جنود يزيد بهذه الكلمات: «ولا يكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إليَّ ولا تنظرون.. إن وليِّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين» فلما سمع النساء هذا منه صحن وبكين وارتفعت أصواتهن بالبكاء فأرسل إليهن أخاه العباس وابنه علياً الأكبر وقال لهما: «سكتا هن فلعمري ليكثر بكاؤهن فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه الخ» على أن محل الشاهد هنا هو أن الذي انتدبه الحسين لهذه المهمة الإنسانية التي تفيض رقة ورحمة وعذوبة إنما هو أبو الفضل العباس.. وعلي الأكبر.. ومعروف أن علياً

الأكبر روحي فداه دائماً هو مع عمه أبي الفضل يسير إلىٰ جنبه بإنجاز مثل هذه المهام التي كانت تؤثر في قلب الحسين وروحه.

وكانت حرائر بيت الوحي ونساء بني هاشم قد اعتمدن على أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ في هذا المجال اعتماداً كلياً، فهو المحامي وهو المدافع عن الحريم.. وهو حامي الظعينة وهو الساقي الذي يسقي عطش النفوس والأبدان.. وكما أن أباه علياً ساقي عطاشىٰ الحشر.. كذلك، أبو الفضل هو ساقي عطاشىٰ كربلاء.

ونلمح هذه العلاقة أو الرابطة التي تربط عائلة الحسين بأبي الفضل ساعة مجيء الشمر ووقوفه علىٰ مقربة من الخيام ينادي: أين بنو أختنا أين العباس وإخوته؟.

وقد كرر هذا النداء أكثر من مرة ولكنه لم يسمع جواباً لأن أبا الفضل أخذه الحياء من أخيه الحسين فأطرق إلىٰ الأرض ينكت التراب بأنامله وقد احمرت وجنتاه من الخجل.. وكذلك صنع أخوته الذين كانوا رابضين حول أخيهم الحسين كالأسود الضواري يتحفزون إلى الانطلاق في ميدان المعركة في أية لحظة، وهم علىٰ استعداد تام للتضحية ينتظرون الإشارة من سيدهم وزعيمهم أبي الأحرار أبي عبد الله الحسين عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ. وراح الشمر يكرر نداءه هذا: أين بنو أختنا أين العباس وأخوته ـ وإنما قال الشمر: أين بنو أختنا لأنه أراد أن يذكر بالقرابة التي تربطه بهم من ناحية الأم، فأم البنين هي بنت حزام الكلابية والشمر كما يدعي أنه هو من عشيرة أم البنين وسبحان الذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.. وما قيمة القرابة في النسب إذا لم يكن تقارب في العقيدة؟.

فأبو لهب عم النبي والقرآن يلعنه بصريح العبارة إذ يقول: ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾.

وأود هنا أن أذكر القارىء الكريم وألفت عنايته ونظره إلىٰ أنني لا أريد أن أثبت هنا أن الشمر تربطه قرابة بأم البنين فاطمة أم العباس وأخوته وإنما فقط أردت أن أقول: حتىٰ علىٰ زعمه هو وادعائه أنه من عشيره أم البنين فإن ذلك لا يشفع له ولا يعطيه حقاً أن ينادي العباس بمثل هذا النداء ولذلك أطرق أبو الفضل ولم يجبه وكذلك صنع أخوة العباس إذ أطرقوا برؤوسهم إلى الأرض حياءً من أبي عبد الله الحسين عليه السلام ، وحياءً من النساء اللواتي وقفن في الخيمة ينصتن إلى نداء الشمر وخصوصاً العقيلة زينب التي وقفت وقد جمد الدم في عروقها وهي تسمع صوت هذا اللعين ينادي بأسماء أخوتها: العباس وأخوته.

فوقفت زينب وقد وضعت خدها على عمد الخيمة وهي تنظر إلى أخيها أبي الفضل العباس ما الذي سيضعه وكيف سيتصرف في مثل هذا الموقف.

وبينما هم في سكوت وإذا بصوت الحسين سلام الله عليه يكسر هذا السكوت في دفء ورقة ورحمة قائلاً لهم: «أجيبوه وإن كان فاسقاً».

فقام إليه العباس واخوته بين يديه وسأله أبو الفضل عن قصده ومراده وإذا به يقول:

يا بني أُختي أنتم آمنون فلا تقتلوا أنفسكم مع الحسين.. والزموا طاعة أمير المؤمنين يزيد (...) فإنه لن يريكم إلا ما تحبون.

وطبعاً أراد الشمر أن يخدعهم بهذه الأماني الزائفة وهذا الشعار الكاذب.. ولكن أبا الفضل وإخوته أكبر من أن تنطلي عليهم هذه الخزعبلات.. إنّ أبا الفضل كان نافذ البصيرة، صلب الإيمان، والبصيرة النافذة لا تدع مجالاً للشك ولا للتردد أن يسيطرا على الشخص المؤمن.. ولذلك نجد أبا الفضل قد أصابه بأبلغ وأروع جواب حين سدد إليه هذه الكلمات الصائبة القاتلة.

قال له:

تبت يداك يا عدو الله - ولعن ما جئتنا به من أمانك يا عدو الله أتأمرنا أن نترك أخانا وسيدنا الحسين بن فاطمة.. وندخل في طاعة اللعناء وأولاد اللعناء..؟.

أتأمننا وابن رسول الله لا أمان له؟.

وبعد هذا الجواب القاطع القوي الذي يكشف عن معدن ونور أبي الفضل العباس - عليه السلام - رجع أبو الفضل إلى الخيام.. وفي أثناء رجوعه وقعت عينه على أخته العقيلة زينب وهي واقفة بباب الخيمة صامتة تنظر إلى أخيها العباس - عليه السلام -.فلما رآها بباب الخيمة مال إليها ليطمئنها ويشد على قلبها. وإذا بها تقول:

أخي أبا الفضل الخيام خيامك والنساء أخواتك فلا تقصر عنا بنصرتك.. وهزت هذه الكلمات أريحية أبي الفضل فانفجر كأنه بركان بقوله وصموده وشجاعته وبسالته وكان إذا تمطى بالرطاب قطعه وقال لاخته زينب كلمات طمأنها فيها وأكد لها أنه ما دام فيه عرق ينبض سوف لن يجرأ أحد من الاقتراب من الخيام.

العباس ينطلق من المبادىء

من عادة الفارس الذي ينزل في ساحة القتال أن يُعرّف نفسه من هو ما هي مبادئه وأخلاقه. وما هي المبادىء التي يناضل ويقاتل من أجلها.

ومن هذا المبدأ انطلقت شعارات أبي الفضل العباس التي أطلقها يوم عاشوراء في مواطن عديدة ففي وقوفه علىٰ الماء وامتناعه من الشرب قبل أخيه الحسين كان له شعار يعكس المبدأ العظيم والمبادىء المقدسة التي حملها وقاتل من أجلها ومنها الإيثار والمواساة، والدفاع عن الحق، والعرض، والشرف إلى آخر نبضة في عروقه فكان يخاطب نفسه:

«يا نفس من بعد الحسين هوني» «هـذا الحسين وارد المنون»
«وتشربين بارد المعين» «هيهات ما هذا فعال ديني»
«ولا فعال صادق اليقين»

فهو يؤكد هنا أن شرب الماء والالتذاذ بطعمه في مثل هذه الحالة يعد مخالفاً لمبادىء وفعال الدين الإسلامي الحنيف.. لأنه دين الحق والإيثار والمواساة والأريحية والنجدة.. دين الشجاعة والكرم والبسالة، وليس من النجدة أن أشرب الماء وإلى جواري نساء وأطفال صغار قد صرعهم العطش وهم يصرخون: العطش.. العطش قد قتلنا فهل إلى شربة ماء من سبيل؟

هذا كان شعاره في وقوفه علىٰ الماء.

«سل الشريعة عنه يوم خاض بها هل ذاق للماء طعماً وهو غارفه
رمىٰ المعين بنهر من أنامله وصدّ عنه وما بلت مراشفه
إن لم يزد معنىٰ في شجاعته علىٰ أبيه فقد ساوت مواقفه»

ونفس الشيء نجده ـ أي أبا الفضل العباس عليه السلام ـ يطلق أهدافه من خلال أرجوزته التي أطلقها ساعة حمل بها علىٰ القوم وهو يرتجز ويقول:

«لا أرهب الموت إذا الموت زقا حتى أوارىٰ في المصاليت لقا
نفسي لسبط المصطفىٰ الطهر وقا إني أنا العباس أغدو وبالسقا
ولا أخاف الشر يوم الملتقىٰ»

ونحن هنا أمام لوحة رائعة تبين كرم وشجاعة هذا البطل العظيم.. ليس فقط تبين شجاعته بل وأيضاً تبين هذه الأبيات مدىٰ اهتمام أبي الفضل بقضاء حوائج الناس والسعي من أجل إنقاذهم وخلاصهم.. وذلك بقوله:

«حتىٰ أوارىٰ في المصاليت لقا».

والمصاليت جمع مصلات.. والمصلات من الرجال، هو: الرجل الشجاع الماضي في الحوائج.. يقال: هو من مصاليت الرجال أي: من شجعانهم الماضين في قضاء حوائج الآخرين.. هكذا جاء في كتب اللغة والأدب تفسير هذه الكلمة وهي: المصاليت.

ولا شك أنه باب من أبواب الله في قضاء حوائج المحتاجين وكشف كرب المكروبين.

وما ينطبق علىٰ هذين الشعارين؛ ينطبق أيضاً علىٰ الشعار الذي أطلقه أبو الفضل ساعة فقد يمينه في سبيل الله فقال:

«والله أن قطعتمو يميني» «إني أحامي أبداً عن ديني»
«وعن إمام صادق اليقين» «نجل النبي الطاهر الأمين»

فهـو يعلن أمام المـلأ أن قـطع اليمين لا يثنيـه عن مسيـرتـه ولا يصـده عن الحق.. بـل بالعكس إن قـطع اليد في سبيـل الحق لهـو أكبـر حـافـز علىٰ المضي في الطريق إلىٰ نهاية الشوط.

لذلك يخاطبه الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ بقوله:

أشهـد أنـك لم تهن ولم تنكـل وإنـك مضيت علىٰ بصيـرة من أمـرك مقتـدياً بـالصـالحين ومتبعـاً للنبيين فجمـع الله بيننـا وبينـك في دار جنـات النعيم».

باب الحوائج

علىٰ أن لقب باب الحوائج الذي أطلق علىٰ أبي الفضل العباس هو من أكثر الألقاب شيوعاً بين الناس، ووقعاً في قلوبهم. . ففي العراق أبو الفضل معروف لدىٰ الناس جميعاً ـ السنة منهم والشيعة ـ يعتقدون بأنه باب من أبواب الله عز وجل الذي يقصده الناس في قضاء حوائجهم علىٰ أن القصص والحقائق التي وقعت وحدثت بالفعل هي أكثر من أن تذكر هنا فما أحد في العراق إلا وهو يعتقد بهذا الجانب في أبي الفضل وأنه باب للحاجات.

وقصده ـ ذات مرة ـ رجل أعمىٰ قد فقد بصره بسبب حادث وعجز الأطباء عن علاجه فلما وقف علىٰ ضريح أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ أنشد يقول:

قصدت أبا الفضل الذي هو   لم يزل قديماً حديثاً للحوائج يقصد
يمد علىٰ العين السقيمة كفه   وإن قطعت يوم الطفوف له يد»

وبالفعل حصل علىٰ مراده فقد حدث أن منَّ الله عليه ببركات هذا العبد الصالح قمر بني هاشم ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ وتستطيع

أن تقول: إنَّ أبا الفضل العباس هو الذي أعاد إليه بصره لأنه ولي من أولياء الله ولـه كرامـة ومنزلـة عند الله عـز وجل.. وكمـا أننا نقـول للطبيب الـذي أجرىٰ عملية ناجحة هو الذي أعاد السلامة للعين وأعطاهـا النور.. كـذلك نقـول: إن العباس بن علي بـطل كـربـلاء هـو الـذي أعـاد البصـر إلى عين الأعمىٰ كرامة من الله بها عليه وإن كان الكل من الله سبحانه وتعـالىٰ ولكن هؤلاء هم الوسيلة إلى الله وقد قال الحق سبحانه: ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾.

وأبو الفضل من أنصع الوسائل التي توصلنا إلىٰ رضوان الله تعالىٰ.

التقوى شرط الظفر

يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام - : «شيعتنا أهل الهدى، وأهل التقىٰ وأهل الخير وأهل الفتح والظفر»

ما دام الإنسان من أهل الهدى فإنه تكون الحيل أمامه كثيرة، والطرق كلها معروفة، لأن الهدىٰ هو انفتاح البصيرة علىٰ وسعها. وما دام الإنسان من أهل التقىٰ فإن التقوى تحجزه عن الانزلاق في مهاوي الشيطان وزحاليفه. ويُصبح موضع ثقة الناس، لأن الناس يجعلونه رمزاً للأمانة والصدق والإخلاص بفعل التقوى التي يتحلى بها، ودائماً المورد العذب شديد الزحام.

ومن هذا المنطلق فإن الإنسان يجب أن يكون من أهل الخير، أي أنه يعمل الخير، وذلك أن العمل يركز التقوىٰ في القلوب أكثر، ولهذا يربط القرآن الإيمان بالعمل الصالح، أي ﴿**الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾. فإذا اجتمعت هذه الصفات والعناصر الثلاثة: الهدى والتقى والخير، فإنه يصبح من أهل الفتح والظفر.

شيء من السيرة الذاتية
لأبي الفضل العباس عليه السلام

عمق الإيمان، والبصيرة النافذة، تجعلان الإنسان يشع بالفضائل شعاً، لأن الإيمان نور والفضيلة ثمرة هذا النور. . أشبه بالشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

ومن هنا كانت الفضائل تتدفق من سيرة أبي الفضل العباس ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ مثل الإيثار، والمواساة والدفاع عن الدين والتضحية من أجل القيم والمبادىء. . مبادىء الحق والعدالة الاجتماعية والحرية.

هذه هي الفكرة التي تنطلق منها سيرة أبي الفضل، وهذه هي القاعدة التي تنطلق منها حياة هذا البطل العظيم الذي علمنا كيف ندافع عن الحق والعدل والحرية ببسالة وشجاعة وأريحية.

وحين ننظر في هذه الفكرة نجد أنها مأخوذة من القرآن الكريم حيث يقول:

﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً. .﴾ أي أنَّ الذي خبثت سريرته، وعقيدته لا يمكن أن تصدر منه أفعال طيبة، ولا مواقف أصيلة، لأنه مريض يحتاج إلى علاج، وعلاجه في

الإيمان والعمل الصالح . . علىٰ أننا نعرف أن الخلل النفسي يجر إلى خلل مثله ﴿في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ لأن المرض الذي في القلب إذا لم تعالجه فإنه يتفاقم ويستشري في الحال.

ثم يعطينا القرآن الكريم مثالاً آخراً يقول فيه:

﴿مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها﴾ .

ومعنىٰ ذلك، أنه ما دامت هذه الشجرة طيبة، فإنها سوف تعطي ثمراً طيباً، وما دامت هذه الشجرة ضاربة بأصولها وجذورها في الأعماق، فإن فروعها ستعانق الجوزاء، وتبلغ السماء، وإنها ستعطي عطاءً لا حدود له، ولا نفاد. . ستعطي ثمراً من كل شيء، وفي كل حين بإذن الله رب العالمين. .

وهذا أنصع وأروع مثال للعقيدة والأخلاق. . أو بتعبير آخر: إنه أجمل مثال يمكن أن يصور العقيدة بالشجرة الطيبة، والأخلاق بالثمار التي تدل علىٰ طيب الشجرة.

وهكذا نعرف أن العقيدة هي الشجرة، والأخلاق يمثلها الثمر. . وكلما كانت الشجرة قوية وضاربة في التربة، كانت الثمار جيدة، والعطاء عظيماً، وطيباً. . .

علىٰ هذا العطاء ليس في وقت دون آخر، ولا في فصل دون فصل، وإنما هو في كل الفصول، وجميع الأوقات. . وهذا هو شأن الأخلاق الطيبة التي تنبع من أصالة في الإيمان، والبصيرة والرشاد.

وكما أنه ليس في الإمكان أن تكون الشجرة خبيثة، والثمار طيبة، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، كذلك لا يمكن أن تكون دخائل النفس خبيثة، والأخلاق طيبة. . أبداً ليس في الإمكان أن يكون مثل ذلك، لأنه خلاف القواعد العامة، والسنن الثابتة التي قام عليها نظام هذا الكون.

ومن هذا المنطلق نجد العقيدة الراسخة القوية، هي التي تسقي النفس بنورها، فتشع النفس بالأخلاق والفضائل والمكارم... بل تصبح النفس منبع الفضائل، وصهريج النور.. نور: الشجاعة، والمبادرة، والبسالة، والسماحة، والفصاحة والمحبة في قلوب المؤمنين.

كل ذلك نجده من الله أكرم المؤمن بها.. فانطلق في طريق العدل والحق، والحرية والمساواة، والمواساة.. والحفاظ علىٰ الدين والشرف، والتضحية من أجل الحق.. ثم استهانة بالموت من أجل الدفاع عن حرمات الإسلام، وحقوق الآخرين.. ومن أجل خلاص المحرومين والمعذبين، وإنقاذ الناس من أعدائهم.. وهذا هو بالضبط ما نلمسه في سيرة أبي الفضل العباس، هذا البطل العظيم الذي يتفجر عبقرية، وشجاعة ورحمة... علىٰ أن أبا الفضل العباس ـ عليه السلام ـ كان محبوباً وقريباً من القلوب الطيبة.. ولذلك نجد أن صاحب العقيدة الطيبة، القوية يكون ـ في العادة ـ محبوباً لدىٰ الجماهير المؤمنين..

يقول القرآن الكريم ـ مشيراً إلى هذه الحقيقة: ! **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمٰن وداً﴾**.

وهذه قاعدة في علم النفس الإسلامي، ومفادها:

إن علامة القلب السليم أن يهفو إلى أصحاب الإيمان والعمل الصالح، كما أن علامة القلب المنحرف، أن ينفر من أهل الإيمان والعمل الصالح.. فإذا رأينا من يكره مثل هذا الإنسان المؤمن، فإن ذلك يدل على انحراف في الفطرة لدىٰ ذلك الشخص بالذات.

ومن هنا أصبح أهل البيت ـ عليهم السلام ـ مقياساً لدرجة الإيمان، ودرجة الكفر لدىٰ الناس جميعاً، فالذي يحبهم مؤمن، والذي يبغضهم كافر، وهذه قاعدة وضعها القرآن الكريم في الآية السابقة، وقد أشار إليها الرسول الأعظم محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في أكثر مكان.. كما أكد عليها الأئمة الطاهرون في

مواطن كثيرة. . ويوم وقف الإمام السجاد ـ عليه السلام ـ في المسجد الجامع في الشام، كان من جملة ما قال: «أيها الناس أعطينا الحلم والعلم والسماحة والشجاعة والفصاحة، والمحبة في قلوب المؤمنين» فركز علىٰ أن محبتهم لا تعيش إلا في قلوب عامرة بالإيمان، لأن حبهم إيمان، وبغضهم كفر.

يقول الفرزدق:

من معشر حبهم دين وبغضهم   كفر وقربهم منجىً ومعتصم

وقد قال الله العظيم في كتابه الكريم: **﴿قُلْ لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربىٰ﴾**.

ورأينا أبا الفضل العباس ـ عليه السلام ـ كيف كان يدافع عن الدين والعقيدة وعن أخيه الإمام أبي عبد الله الحسين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ .

علىٰ أنه توجد ملاحظة هنا بالغة الأهمية، وهي: أن أبا الفضل العباس استطاع أن يعطي أروع وأنصع صورة عن الدين الإسلامي الحنيف، وهو أن الدين ليس فقط في الإسلام والقرآن، بل وأيضاً في الإمام المعصوم. . في حجة الله في الأرض. . لأن الإمام المعصوم هو القرآن الناطق، وهو الإسلام الذي يمشي علىٰ الأرض. . بل هو النور الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم. لذلك نجده ـ أي العباس ـ يقول حينما قطعوا يمينه:

والله إن قطعتموا يميني
إني أُحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين
نجل النبي الطاهر الأمين

وأعود بكم الآن إلىٰ الشجرة الطيبة التي ضربها الله مثلاً لطيب المنبت،

وأصالة النفس الإنسانية، وكرامة الأعراق، لأن الدين معناه هذه الشجرة الطيبة التي تتمثل في النبي وأهل بيته الكرام، فإذا أنت كرهت هذه الشجرة ولم تحمل لها حباً في قلبك وتبرمت بوجودها.. أو أنك قطعتها، ونثرت أغصانها، ودست أوراقها، فإن ذلك يعني أنك ضد الدين والإنسانية، وضد الله وضد الجمال، وضد العدالة والحرية، والحق والمساواة.. بل أنك ضد كل ما هو جميل ومرغوب ومحبوب.

وبالمثل: فلو رأيت إنساناً يقف ضد هذه الشجرة ويسبها ثم يروغ عليها وعلىٰ أغصانها ضرباً بالفؤوس، والسيوف والنبال والرماح، فإن هذا الموقف يعد عدواناً ضد الله وضد إنسانية الإنسان، وضد الأنبياء وكتب السماء. ولهذا فإننا نحكم عليه بأنه ضد الفطرة التي فطر الله الناس عليها، بالإضافة إلى أن هذا العمل لا يمت إلى الإنسانية بصلة لا من قريب ولا من بعيد.

وبالمثل: حين نجد بني أُمية يسبون علياً فوق المنابر.. ويشتمون أهل بيت النبي، ثم يذبحون أبناءهم، ويسبون ـ من السبي ـ نساءهم، ويشردونهم في البلدان، ويمنعون عنهم الماء والطعام.. أقول: حين نجد بني أمية يصنعون مثل هذا الصنيع، أو قُل: الفعل الشنيع وأكثر من ذلك، نجدهم يرفعون القرآن الكريم فوق الرماح ثم يرمونه بالسهام حتىٰ تتمزق أوراقه الكريمة.. فماذا نحكم عليهم.. وبأي منظار ننظر إليهم.. وبأي ميزان نزن فضائحهم هذه؟.

لا شك أنهم من ألد أعداء الإسلام. ولهذا كانوا يمثلون الشجرة الملعونة في القرآن.

علىٰ أن الوعي والرشاد، ونفاذ البصيرة التي كان يتمتع بها هذا البطل الإنساني الخالد، أبو الفضل العباس بن علي بن أبي طالب ـ عليهم الصلاة والسلام ـ أقول: هذه الخصال هي التي جعلت من أبي الفضل شعلة وهاجة من الشجاعة والمبادرة، والفطنة والذكاء والاندفاع نحو الحق..

أجـل. . هذه هي التي جعلت العبـاس قادراً علىٰ الـدفاع عن الـدين والحق والحرية. . عن الدفاع عن الإيمان والعقيدة، وعن إمام صادق اليقين أبي الأحرار أبي عبد الله الحسين سيد شباب أهل الجنة، وريحانة الرسول، وقرة عين الزهـراء البتول. . ومن قـال فيه النبي الكـريم ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ : «حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً».

ولذلك شرف أبو الفضل الخطر الذي يتهدد الإسـلام من قبل الـظلمة وأعوان الظلمة، من الحكام الخونة، من بني أمية ومن أشياعهم وأتبـاعهم، من آل أبي سفيان وبني هند آكلة الأكباد. . ولهذا قدم العباس نفسـه ويديـه ورأسه في سبيل الـدفاع عن الـدين والقرآن، والحق والعـدالة الاجتمـاعية، فكان يرتجز ويقول:

والله إن قـطـعـتـمـوا يـمـيـنـي
إنـي أحـامـي أبـداً عـن ديـنـي
وعـن إمـام صـادق الـيـقـيـن
نـجـل الـنـبـي الـطـاهـر الأمـيـن

والآن اقـرأوا معي هـذه الآيـات التي وردت في معنىٰ الشجـرة، وأنـواع الشجـر، وألوان الثمـر، والتي كلها أمثلة ضـربها الحق سبحـانـه لتحـريـك القلوب، وإثارة العقول والمشاعر.

ثم اعلم أن أبا الفضل العباس هو أروع مثال لذلك، ولهذه الشجرة، فقد خاطبه الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ بقول:

(كان عمنا العباس بن علي نافذ البصيرة صلب الإيمان. .).

ولأنـه نافـذ البصيرة، وصلب الإيمـان، فإن منـزلته ستكـون في أعلىٰ عليين، بحيث كـل الشهداء يتـطلعون إلىٰ منـزلتـه بشـوق وحـرارة وغبـطة، ولـذلك قـال الإمام السجـاد عليه السلام : وإن لعمي العباس. . ابن علي، منـزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة. كما مر علينا الآن.

امثلة وشواهد

ومن الأمثلة، أنك لا تطلب من الشجرة الخبيثة، فاكهة طيبة. وطعاماً طيباً.

إن الطعام غذاء البدن، والأخلاق غذاء الروح.

* * *

وإن وظيفة الأنبياء تنصب علىٰ هذا المعنىٰ، أي أنها تهتم قبل كل شيء بإيجاد الشجرة.. والشجرة موجودة في كل نفس وهي شجرة الفطرة التي تهتم بغذاء الروح والبدن. فإذا وجدت الشجرة أعطت الثمر، وأخذت أنت منها الثمر.. أما إذا لم تكن هناك شجرة، فكيف تأخذ منها الثمر؟

ومن هنا فإن قراءة السيرة الذاتية لأبي الفضل تنعش الفطرة السليمة في داخلنا وتجعلنا قادرين علىٰ الدفاع عن الحق والحرية والمساواة، في زمن رديء ماتت فيه هذه القيم والمبادىء وهذه باقةمن الأمثلة:

يقول الحق سبحانه:

﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾[1].

علىٰ أن الملاحظة التي تجدر الإشارة إليها هي أن هذه الشجرة موجودة هنا في الدنيا وفي الآخرة أيضاً توجد شجرة طوبىٰ، مقابل هذه والأشجار هنا مختلفة، شجرة طيبة، وشجرة خبيثة..

وهي نفسها نراها على حقيقتها يوم القيامة وفي الآخرة..

فالشجرة الطيبة، هنا نجدها هنالك في شجرة طوبىٰ أو أنها تنبت هناك

(١) سورة البقرة؛ آية: ٣٥ ج ٢.

شجرة طوبى . . والشجرة الخبيثة هنا، تنبت هناك شجرة الزقوم «إن شجرة الزقوم طعام الأثيم».

ويقول القرآن: **﴿أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم إنا جعلناها فتنة للظالمين، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم. . طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾**. وإنما قال طلعها كأنه رؤوس الشياطين، لأن الجزاء من نفس العمل، فعمل الشيطان هنا، يتحول هناك أو يكوّن للكافر، شجرة الزقوم في حين أن العمل الصالح يتحول هناك إلى شجرة طوبى التي هي في الجنة.

واقرأوامعي إذا شئتم الكلمات التالية المتنوعة التي كتبتها في تفسير معنى الشجرة الطيبة وضدها لتعميم الفائدة:

يقول القرآن الكريم:

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، ومن كل الثمرات، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾(1).

تسيمون: أي ترعون أنعامكم. .

والمسألة هي مسألة التفكير، فمن دون تفكير لا يمكن أن تأخذ نتيجة، ولا ثمرة: أي ولا تحصل علىٰ ثمرة.

وجاء في الشجرة الخبيثة، عن الإمام الباقر عليه السلام ـ هي بنو أمية، اجتثت من فوق الأرض أي اقتلعت جثتها، من فوق الأرض ـ ولاحظوا هل بقي منهم شيء، من بني أمية أو بني العباس. . أو الظلمة وأعوان الظلمة. ـ ثم يقول الحق سبحانه: **﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾**

---

(1) سورة النحل؛ الآيتان: ١٠ ـ ١١.

أي بكلمة التوحيد المتمكنة في قلوبكم بالحجة (في الحياة الدنيا، وفي الآخرة).

إلى آخر الآيات. . .

ونقرأ في القرآن الكريم:

﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾(١).

وفي القرآن الكريم، نجد إشارات خاطفة للشجرة، فمثلاً، هناك مع آدم كانت الشجرة المحرّمة. . وفي المقابل يتحدث مع موسىٰ فيذكر له اللقاء الذي تم عند الشجرة.

يقول: **﴿فلما أتاها نودي من شاطىء الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسىٰ إني أنا الله رب العالمين﴾**(٢).

ويقول في مكان آخر:

﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً﴾(٣).

ثم نقرأ هذه الآية:

﴿إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون، كغلي الحميم الخ﴾. (٤).

وبالنسبة ليونس عليه السلام نقرأ قوله تعالىٰ:

---

(١) سورة الأعراف؛ الآيتان: ١٩ ـ ٢٥ ج ٨.
(٢) سورة القصص؛ آية: ٣٠ ج ٢٠.
(٣) سورة الفتح؛ آية: ١٨ ج ٢٦.
(٤) سورة الدخان ؛ الآيات : ٤٣ ـ ٤٦.

﴿فنبذناه بالعراء، وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين، الخ﴾[1]

وفي آية أُخرىٰ نقرأ قوله تعالىٰ:

﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين﴾[2].

وفي محبة أهل البيت جاء عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من أحبنا فهو من أهل البيت، فقلت: جعلت فداك منكم؟ قال: منا والله أما سمعت قول الله وهو قول إبراهيم عليه السلام: «فمن تبعني فإنه مني» الميزان سورة ابراهيم ص ٧٩ ج ١٢.

علىٰ أن محبة أهل البيت هي التي تسقي عطش الشجرة وتروي ظمأ الفطرة.

ولذلك شبه هذه الكلمة بالشجرة الطيبة. والكلمة هي المحبة والعمل الصالح.

أي أنه شبه الكلمة الطيبة، وهي الإيمان الثابت في قلب المؤمن الذي يرفع به عمله إلى السماء كما قال: إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه.

وتنال بركته وثوابه في كل وقت، فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله، صعدت إلى السماء وجاءت بركتها، وخيرها. وشبه بالشجرة المثمرة الجميلة المنظر الشذية الرائحة، التي لها أصل راسخ في الأرض به يؤمن قلعها وزوالها. وفروعها متصاعدة، في الهواء، الخ..

وخلاصة ذلك، أنه تعالى شبه كلمة الإيمان بشجرة ثبتت عروقها في

---

(١) سورة الصافات؛ الآية رقم ٤٥ ـ ٤٦ ج ٢٥.

(٢) سورة المؤمنون؛ الآية: ٢٠ ج ١٨.

الأرض، وعلت أغصانها في السماء وهي ذات ثمر في كل حين، وذلك أن الهداية إذا حلت قلباً فأمنت منه علىٰ غيره، وملأت قلوباً كثيرة.

«وما أقوىٰ الحق وأثبته ـ وأهل الفكر والقلوب العظيمة، والنفوس الكبيرة، دائماً يحملون الكلمة الطيبة لكل الأجيال». ولهذا نجد الإمام الصادق عليه السلام يخاطب أبا الفضل العباس بهذا الخطاب:

«والزاكيات الطيبات فيما تفتدي وتروع عليك يا ابن أمير المؤمنين».

وذلك أن أبا الفضل هو من معادن الفضل والإيمان والمعرفة.. ومن نبع هذه الشجرة الطيبة ومن أصولها الثابتة في أعماق العقيدة وأفاق الإيمان علىٰ أن أبا عبد الله الصادق عليه السلام إنما ضرب هذا المثال ليدلك أن مصير الطيبات إلى ازدهار ونمو، ومصير الخبائث إلى الانهيار والمحو لأن الطيبات قائمة بالحق، والحق أسرع إلى قلوب الناس، وأسرع إلى الفطرة، لأن له جذور في القلوب، ولذلك نجد الإنسان الطيب له محبوبيه في الناس وفي قلوبهم بعكس الإنسان الذي هو خبيث فإنه وأن بدا أنه في المجتمع لكنه ينتهي، وينعدم لأنه ليس له جذور، ولا أصول، وأنه أشبه ببساط مفروش فوق الأرض سرعان ما ينقلع ويطير إذا هبت عليه رياح الحقيقة وعاصفة الواقع.

وفي القرآن الكريم حينما يتحدث عن الشجرة الطيبة وكيف تعطي ثمارها يقول «بإذن ربها» أي أنه أذن وأجاز ولولا إجازته سبحانه لم تكن ولم تؤت ثمراً. ولذا جاء بلفظ الأذن الخ ـ مثل والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً ـ.

ولاحظوا هنا في القسم الطيب قال بإذن ربه، وربها، وفي الخبيث لم يقل بإذن الله.

وإنما تركها هكذا. لأن الله لا يأذن بالشيء الخبيث وإنما يأذن بالطيب والنافع.

ثم يقول: «ويضرب الأمثال للناس» لأن المثل يحرك أمواج الفكر. . ومشاعر النفس الخ.

والسر أن الحق يدخل القلوب بها أودع الله فيها من حب ذاتي للحق، وكره ذاتي للباطل، والباطل إنما يأخذ السطوح، وما يبقىٰ في القلب في أمن من الخطر والغير. . أما ما في السطوح فإنه يزول بأقل حركة، ولذا قال الفرزدق للحسين عليه السلام: قال: قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أُمية ـ وقد رأينا كيف زالت بنو أمية لما وقعت من أيديهم السيوف، وكيف بقي الحسين عليه السلام ـ وفي الآية: ﴿**فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم**﴾.

ولهذا السر عاش الأنبياء والأئمة في القلوب وفي الحياة بينا لم يبق من الجبارين أحد.

شجرة طيبة، ثابتة سامقة مثمرة، ثابتة لا تزعزها الأعاصير ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوىٰ عليها معاول الطغيان، وإن خُيِّل للبعض أنها معرضة للخطر الخ. وهي مثمرة ثمرها لا ينقطع ثمرها، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آناً بعد آن.

والخبيثة وإن بدت نافشة هشة ولكنها تظل بلا جذور في التربة ولذا فإن زوالها سريع ومتيقن. لأن الطيبة موزونة بالحق بينما الخبثية لا وزن لها. . والحق خالد لا يعتريه فناء.

بين المؤمن والكافر

﴿والوزن يومئذ الحق، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾(1).

والقلب الطيب ينمو فيه الخير، والخبيث لا ينمو فيه شيء. الخ.

والمعنىٰ أن الأرض منها الطيبة الكريمة التربة التي يخرج نباتها بسهولة.

قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله تعالىٰ للمؤمن والكافر أي للبر والفاجر..

أي أنه تعالىٰ شبهها بالأرض الخيرة والأرض السبخة وشبه نزول القرآن بنزول المطر، فالأرض الخيرة يحصل فيها المطر أنواع الأزهار، والثمار، والأرض السبخة، إن نزل عليها المطر لا تنبت من النبات إلا النذر القليل.

فكذلك الروح الطيب، النقي من شوائب الجهل ورذائل الأخلاق إذا

---

(1) سورة الأعراف؛ الأيات: ٧ ـ ٨ ـ ٩.

اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع الطاعات، والأخلاق الحميدة، والروح الخبيث الكدر وإن اتصل بـه نور القـرآن لا يظهـر فيه من المعـارف وجميل الأخلاق إلا النذر القليل أو لا يظهر فيه شيء علىٰ الإطلاق في حين.

أن عمل المؤمن دائماً في طاعة الله .

وهنـا ملاحـظة مهمـة ، وهي أن العقيـدة هي الأصـل وهي قـائمة على الإخـلاص لله وحـده الـذي لا شـريـك وعبـادتـه ، ثم تـأتي الحسنـة ، وهي الفرع ، أي الفضائل .

فـالأصل العقيـدة، والفرع الفضـائل والأخـلاق التي تنـطلق من هـذه العقيدة، ثم أن هذه الفضائل تترك ثمارها في المجتمع الخ .

وهـذه الصفات الـطيبة نجـدها واضحـة متألقـة في سيرة أبي الفضـل العباس لأن سيرته هي الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء.

عندما يصبح الحزن جميلاً

هذه الكلمة كتبتها في تقديم ديوان شعر في رثاء أهل البيت ورأيت أن أدرجها هنا تعميماً للفائدة والإنتفاع.

حين نتأمل ونتدبر، كيفية انتشار الإسلام في العالم، بحيث في فترة وجيزة استطاع لواء الإسلام أن يرفرف علىٰ كل بقاع الأرض، إلى درجة بات معها دخول الناس والشعوب في الإسلام أفواجاً، أقول: حينما نفكر أو نتفكر في عملية هذا الانتشار السريع العريض للإسلام، باحثين عن العوامل التي أدت إلى هذه السرعة الفائقة في انتشار الدين بين شعوب الأرض، نجد أن أعظم الأسباب في ذلك، هو: الرحمة التي جاء بها الرسول ورقة القلوب.. تلكم الرقة القلبية التي كان النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كان يتمتع بها، بل كانت أطغىٰ وأنصع صفة في سيرة النبي، وكل صفاته ناصعة طيبة.

أجل.. إن الإسلام إنما انتشر بأخلاق النبي ورقة قلبه، وليس بالسيف، والإنتقام.

القرآن الكريم يصف النبي بأنه أعلىٰ قمة عرفتها الدنيا بالأخلاق: «وإنك لعلىٰ خلق عظيم..».

والنبي الكريم يقول: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق..» ويخاطبه الحق سبحانه بقوله «و﴿ولو كنت غليظ القلب لانفضوا من حولك..﴾.

وأخلاق الرسول، تشكل أعظم قوة في الإسلام، بل هي أقوى قوة، وأكبر طاقة استطاع الإسلام أن ينتشر بواسطتها، وبفعلها. ولذلك نجد القرآن الكريم، يطلب من النبي العظيم محمد صلى الله عليه وآله وسلم يطلب منه أن يسبح الله، ويقدسه شكراً، وتمجيداً لهذه القوة الكبرىٰ التي زود الله بها رسوله الكريم، وهي قوة الأخلاق التي تقوم علىٰ أساس رقة القلب، والرحمة، والعاطفة الطيبة المهذبة.

ومن هنا، نجد الإسلام قد ركز في كل مناهجه علىٰ رقة القلب، وتزكية العاطفة، مع العلم أن الفكر الإسلامي لا يغفل الجانب العقلي في الإنسان أبداً، ولكن العقل إذا غابت العاطفة عنه، حوَّل الحياة إلى جحيم، وتلكم حقيقة ثابتة في العلم الإسلامي لا غبار عليها.

أقول: لكي يحفظ الإسلام مناهجه ساخنة متدفقة بالعطاء أو الرحمة، ركز علىٰ حفظ العاطفة، وحالة الخشوع الناشئة من رقة القلب.. ركز عليها تركيزاً عميقاً، فمثلاً، ما من موضوع ولا فكرة طيبة يريد الإسلام إنباتها نباتاً حسناً في النفوس، ألا ويأتيها عن طريق العاطفة، لأن العاطفة أسرع استجابة من العقل، وعندما تكون العاطفة في قمة نشاطها يكون العقل موازياً لها في النشاط ومضاهياً لها في النفع والعمل الصالح.

فإذا أراد القرآن الكريم، أن يجسد لنا العاطفة تجسيداً ربانياً تربوياً، نجده، يطلع علينا بصورة نبي عظيم من الأنبياء، والصورة غارقة ومصبوغة بالعاطفة والدموع، كما هو الحال في قصة يوسف الصديق، وحكاية يعقوب النبي العظيم الذي ناح علىٰ ولده يوسف حتىٰ فقد بصره من كثرة الحزن والبكاء.

﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ وحين يريد القرآن أن يتحدث

عن المحرومين والمستضعفين، فإنه يثير العاطفة في القلوب، وذلك بنقل صورهم أي صوّر أولئك الأنماط من الضعفاء، فتراه يقول في المسكين واليتيم:

﴿. . . . يَتيماً ذا مقربة . . أو مسكيناً ذا متربة . . .﴾ يصور اليتيم بأن له رحماً تمس القلوب. ويصور المسكين بأن له أسمالاً بالية، تبدو عليه رقة الحال، فهو مسكين ذو متربة أي أثار الغبار علىٰ وجهه وثيابه المتواضعة، وكل ذلك إنما هو لأجل أن يثير العاطفة، ويحرك أمواج الرحمة في أعماق النفوس لترحم الآخرين.

وبالمثل نجد الإسلام، حتىٰ في برامجه الغذائية يمنع تناول الأطعمة المحرمة مثل: لحم الخنزير، والدم المسفوح والميتة، والخمر، وما شابه ذلك، إنما يحرمها لأنها تؤدي إلى قسوة القلب كما ثبت علمياً أن شرب الدم، والخمر، وأكل لحم الخنزير يؤدي إلى قسوة القلب، بل إن أكل المال الحرام يصنع نفس الصنيع في الإنسان، بحيث إذا امتلأت البطون من الحرام قست القلوب فعادت كالحجارة بل أشد قسوة من الحجارة ومن الصخور الصماء.

ولهذا نجد الإمام الحسين ـ عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ عندما يخاطب أعداءه يوم عاشوراء، يصفهم بأنه ملئت بطونهم من الحرام، فاستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله العظيم.

وكأن سيد الشهداء يكشف عن أعمق وأعظم الحقائق في مجال علم النفس البشري، من خلال هذا التسلسل الفكري الذي ذكره أبو الأحرار يوم كربلاء.

ولا شك أن هذا العلم ليس في إمكان الحضارة المعاصرة، ولا في استطاعة أحد من علماء العصر أن يكتشفه أبداً. . وذلك أن الحضارة قائمة علىٰ قواعد وأسس مادية وهي لا تعرف ما وراء المادة، إنما يعلمون ظاهراً

من الحياة الدنيا، أما رجال الإسلام فالقضايا واضحة أمامهم لا تحتاج إلىٰ مشقة وعناء، لأنهم يتلقونها، أي العلوم، من لدن حكيم عالم.

فهذا الرسول الأعظم محمد - بن عبد الله - صلى الله عليه وآله وسلم وهؤلاء أهل بيته الطيبين الطاهرين، قد كشفوا لنا عن حقائق الكون وأسرار الطبيعة، وحقائق الإنسان والحياة بشكل واضح، وميسر. في الوقت الذي عجزت فيه البشرية عن معرفة أبسط الحلول لأبسط المشاكل.. وبالمثل: إذا سألت طبيباً في علم النفس، وشكوت له قسوة في قلبك، بأن قلت له: يا طبيب أنا أشعر بقسوة في قلبي فما هو العلاج؟ أريد منك علاجاً!

أتراه يستطيع أن يصف لك العلاج؟ لا أظن، ولا أعتقد.

إن علاج قسوة القلوب لا يوجد لدىٰ الطبيب، بل يوجد عند الله العزيز العليم، ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب...**﴾.

ونجد العلاج عند الحبيب المصطفى محمد حيث يقول: «إذا أحس أحدكم بقسوة في قلبه فليدن طفلاً يتيماً وليمسح بيده علىٰ رأسه، فإنه سرعان ما يشعر بالرحمة تتدفق في داخله» هذا هو مضمون الحديث وليس نص الحديث.

وهنا أود أن أنقل لكم أيها الأحبة صورة للعاطفة يمكن أن تحدث، وتقع في أي مكان من الأرض، وهي صورة تكشف عن حقيقة كل إنسان ينظر إليها يتفاعل معها، بل إن شخصيته تتحدد علىٰ قدر تفاعله مع هذه الصورة، وإليكم الصورة:

تصوروا أنكم في جمع من الناس يضمكم مجلس كبير، وفي أثناء انعقاد المجلس، وبينما الناس جالسون يدخل عليكم طفل يتيم يتصفح الوجوه يبحث عن أبيه الشهيد.. إنه طفل صغير في السنة الرابعة من العمر، وفوجيء بفقد أبيه، فدخل وسط هذا الجمع من الناس يفتش عن

أبيه، وأثار التعب بادية علىٰ وجهه الناعم، وكلما وقع بصره علىٰ رجل من الجالسين فاضت عيناه من الدموع، لأنه في كل مرة يبحث فيها عن أبيه يصاب بخيبة أمل، فيبدو عليه الانكسار، وتبدو عليه رقة الحال.

وهنا نجد التأثير الكبير الذي يتركه هذا الطفل اليتيم علىٰ الجميع.. ولكنه أثر متفاوت، فاستجابات الناس، ومشاعرهم وعواطفهم ليست واحدة، وليست ذات نغمة واحدة وإنما هي متفاوتة، متضاربة ويمكن أن نحددها من أقصىٰ اليمين إلىٰ أقصىٰ اليسار، وبين هاتين النقطتين عشرات الصور المختلفة.. ولكن لكي تجيء الصورة واضحة نقول: إن رد الفعل من الناس يكون متفاوتاً أخذاً من دع هذا اليتيم، وانتهاءً باحتضانه والبكاء عليه. فواحد مثلاً تراه لا يلتفت إلى محنة هذا الطفل، في حين نجد آخرين يذوبون دموعاً، وعاطفة علىٰ حال هذا اليتيم.. وبين هذا وذاك صور كثيرة كما قلنا، ولكن خذ صورتين متعاكستين من الناس: واحد يدع اليتيم، والآخر يجلسه في حجره ويمسح بيده علىٰ رأسه ودموعه تفيض من عينيه.

والآن بعد أن عرفت هذه الصورة التي أنقلها لكم من مجال علم النفس التربوي أقول: الآن فأي الرجلين أحب إلى قلبك، وأقرب إلى الله سبحانه وتعالىٰ؟

لا شك أن الرجل الذي أخذ الطفل وأجلسه في حجره، وراح يقبله في رحمة وحنان، هو أقرب إلى الله، وأحب الناس إلى القلوب... لأنه قام بما تمليه عليه الفطرة السليمة.. أما الرجل الذي ضرب اليتيم ودعّه، ولم ينفعل بحالة اليتم، فهذا أبعد الناس عن القلوب، وعن رحمة الله سبحانه، بل إن النفوس الكبيرة تعافه، وتشمئز منه.

علىٰ أن الذي نستفيده من هذه الصورة العاطفية هي أن الصور العاطفية تكون في العادة أوقع في القلوب، وتترك أثراً بالغاً في النفوس.. ومن هنا نجد التركيز علىٰ العاطفة وعلىٰ البكاء، لأن البكاء يخلق حالة من

الخشوع في القلوب، وحالة الخشوع هي أحسن حالة يمكن أن يكون عليها الإنسان.

والعاطفة عندنا في ذكرىٰ الإمام الحسين، وذكرىٰ عاشوراء، علىٰ أكمل وجهها وأروع صورها، ولذلك قال أهل البيت عليهم السلام لا يوم كيوم الحسين عليه السلام وإذا عرفنا كيف نتعامل مع ذكرى الإمام الحسين، وكيف نستفيد من مبادئه وأهدافه أقول: إذا عرفنا ذلك، عرفنا حقيقة وجودنا في الحياة. وأدركنا عظمة الإنسان، لأن الذي يكتشف الإمام الحسين، يكتشف نفسه، ووجوده، ويكتشف حقيقة وجوده في الأرض، ولماذا خلقه الله سبحانه وتعالىٰ.. وبحق أقول لكم أيها الأحبة: إن الذي لا يعرف من هو الإمام الحسين، لا يمكن أن يعرف الله حق معرفته، وإذا لم يعرف الله، فالأولىٰ به ألا يعرف الرسول الأعظم، ولا أهل بيته، وبالتالي: فهو لا يعرف الغاية من إرسال الأنبياء ونزول القرآن علىٰ قلب محمد المصطفى.

ولكي نعرف حقيقة الإسلام، تعالوا معي لنلتحق في ركب الإمام الحسين عليه أفضل الصلاة، وأزكىٰ السلام.

الحقيقة التي لا تثير غباراً، هي أن الله سبحانه وتعالىٰ، خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم أمناً من معصيتهم لأنه لا تضره معصية من عصاه، ولا تنفعه طاعة من أطاعه... خلقهم لا ليظلمهم ولكن خلقهم ليرحمهم، ليفيض نعمه عليهم، وينزل رحمته وآلاءه علىٰ الناس كافة.

وكان من مصاديق الرحمة للعباد، أن زودهم الله بالعقول، وأرسل إليهم الأنبياء، والرسل.. وكان أعظم أعمال السماء - إذا صح وجاز التعبير - أن خلق الله سبحانه محمداً وأهل بيته وأرسلهم رحمة للعالمين.. أرسلهم لكي يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، بإذن ربهم... أجل لقد أرسل الله محمداً المصطفى وجعل أهل بيته رحمة للناس كافة.

لقد خلقهم الله عز وجل قبل أن يخلق البشرية بآلاف السنين،

وجعلهم أنواراً بعرشه محدقين، كما يقول النبي: إن أول ما خلق الله.. خلق نور النبي ونور أهل بيته وهم أصحاب الكساء، وأصحاب سورة الدهر، وأصحاب يوم المباهلة، وهم حملة الإسلام، وأمناء الله علىٰ وحيه، هم فاطمة وعلي والحسن، والحسين (عليهم أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام).

هؤلاء هم أهل البيت ومعهم النبي فنسميهم أصحاب الكساء.

النبي وأهل البيت هم الذين اصطفاهم الله واجتباهم، وطهرهم من الرجس تطهيراً، وقال: **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾** وقال: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، فكانوا مصدر الرحمة وينابيع الحكمة وبحور العلم والكرم، والشجاعة لقد أعطاهم الله: العلم، والحلم، والسماحة والشجاعة، والفصاحة، والمحبة في قلوب المؤمنين، حتىٰ صار حبهم دليل الإيمان وبغضهم دليل الكفر والنفاق.

وبالفعل جاء الإسلام العظيم، الذي حمله النبي وأهل بيته، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور.. ونحن نعرف أنهم قبل الإسلام كانوا يشربون الطرق، ويقتاتون القد والورق، أذلة خاسئين، يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم، فأنقذهم الله بالنبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما تؤكد ذلك الصديقة فاطمة الزهراء في خطبتها.

إذن: فهم قبل الإسلام، كانوا يشربون الطرق وكانوا أذلة خاسئين، وكانوا خائفين من السطو، والنهب والخطف.. فجاء الإسلام ليجعلهم سادة الأرض، وحملة الوعي، والنور، والعلم، حتىٰ يصفهم القرآن بقوله: **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في سبيل الله﴾**.

والشيء الذي تركه الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم في العالم، شيء

رهيب ورائع جداً، حيث أنّه استطاع أن يغير الدنيا تغييراً جذرياً، لم يسبق له مثيل، ولا نظير في تاريخ البشر، ولا حتىٰ في تاريخ الأنبياء.

ففي فترة وجيزة، انتشر الإسلام ـ كما أسلفنا ـ في أرجاء المعمورة كافة، والسبب في ذلك شيئان أو عاملان:

١ ـ أخلاق النبي الكريم.

٢ ـ وسهولة الدين الإسلامي ويسره، لأنه دين الفطرة، والفطرة ترفض الحرج، والتكلف والتعقيد، والفطرة ترفض الأغلال، والقيود، وتبحث دائماً عن الانطلاقة في أجواء الإيمان والحرية، والرحمة، والسماحة.. وهذه كلها موجودة في الإسلام علىٰ أحسن أحوالها، وأقوىٰ وجودها.. ولهذا دخل الناس في دين الله أفواجاً أفواجاً.. لما لمسوا من الرحمة والرأفة، والمحبة، والعفو، والصفح، والكرم، والعزة، والأخلاق، الرفيعة،.. الأمر الذي جعل الإسلام ينتشر بسرعة فائقة، بفعل الأخلاق، وليس بقوة السيف، لأن السيف يمير الرؤوس، ويقتل الناس، وليس في إمكانه أن يدخل الناس في رحاب الإيمان.

وكل ذلك بفضل أخلاق الرسول، وأهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيراً.

إن أهل البيت هم أمناء الله علىٰ وحيه وعزائم أمره، وهم حفظة القرآن الكريم.. وعندما يقول الحق سبحانه: **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** فإنما يحفظ القرآن بأهل البيت الذين هم عدل للقرآن كما جاء ذلك في حديث الثقلين: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي.. ما إن تمسكتم بهما لن تظلوا من بعدي... ولقد نبأني اللطيف الخبير إنهما لن يفترقا حتىٰ يردا عليّ الحوض».

ثم يقول: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجىٰ ومن تخلف عنها غرق وهوىٰ».

«إنهم هم أهل التوحيد بصدق، وإخلاص. .» فإذا أراد الواحد منا أن يعرف التوحيد علىٰ حقيقته، ويأخذ صورة واقعية تجسد التوحيد بكل معالمه، فما عليه إلا أن يذهب إلىٰ دار علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

وحين تفتح الباب عليهم، تجد صورة التوحيد في سيرتهم الذاتية، وفي حياتهم وفي قولهم، وأفعالهم، وحركاتهم، وخطواتهم. إنَّ البيت ليصورون الإسلام تصويراً دقيقاً، وواضحاً في كل عمل يعملونه، وفي كل كلمة يقولونها.

إن سيرتهم هي تطبيق فعلي لعدالة الله في الأرض. . وإن وجودهم هو امتداد للنبوة، وتكميل لرسالة السماء.

وقد أوضحت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام، أوضحت هذا الجانب في خطبتها حيث أعلنت أن العدل، والإمامة هما من أصول الدين وليس من أصول المذهب كما يحلو للبعض أن يقول.

إن فاطمة أعلنت قبل ألف وأربعمائة عام أن أصول الدين خمسة، وأنَّ أهل البيت هم أهم ركن في الإسلام، وذلك أنَّ حقيقة التوحيد، والإيمان بالله وانتشار الإسلام، إنما يتوقف ذلك كله علىٰ معرفة محمد وأهل بيته الطاهرين.

قالت في كلامها:

«وجعل الله سبحانه العدل تنسيقاً للقلوب. . وجعل إمامتنا أماناً من الفرقة، وطاعتنا نظاماً للملة. .» فذكرت العدل والإمامة، . العدل بعد التوحيد، والإمامة، بعد النبوة، فيكون المجموع خمسة مع الإيمان بيوم القيامة والآخرة.

وفاطمة الزهراء، سلام الله عليها تؤكد هنا، بهذه الكلمة الطيبة، تؤكد: أنَّ الإسلام لا يمكن أن ينتشر من دون أهل البيت، وأنَّ الإنسانية لا يمكن أن تصل إلىٰ رشدها، وهو قمة النظام أو التنظيم في الحياة الاجتماعية بغير الرجوع إلى أهل البيت وأخذ مناهج الإسلام عنهم ومنهم. . فإنما أوجدهم الله وجعلهم

عدلاً للقرآن، وذلك حتىٰ يستطيع الإسلام أن يؤدي رسالته، ويستطيع القرآن أن يؤدي مناهجه إلى العالم أجمع.

رسالة القرآن.. هي رسالة الحب، والرحمة، والسلام،.. هي رسالة تحطيم الأغلال، وكسر القيود هي رسالة الحق، والعدل، والحرية.. رسالة الأحرار والمناظلين، والشرفاء في العالم.

وهي بالتالي: رسالة الفكر، والرشد والعلم.

فأهم وظيفة لدىٰ النبي، هي تحطيم الأغلال، وتكسير القيود.

﴿يضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ .

ويقول في آية ثانية:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ .

هذا هو الإسلام.

إنه الدين الغيور الذي جاء لنجدة الناس، وإنقاذهم من أيدي الطغاة والظلمة، والجلادين.

ومن المفارقات العجيبة، أن يجيء الرسول لرفع الأغلال، وتحطيم القيود عن الناس.. في حين يجيء بنو أمية، والحكام الخونة، وعلىٰ رأسهم يزيد بن معاوية، فيقتل الناس، ويسفك الدماء، ويصادر الحريات، ويسحق الكرامة البشرية تحت أقدامه، وبالتالي يضع الأغلال والقيود في أعناق أهل البيت وبنات رسول الله!!..

يا للمفارقة..

وما عشت أراك الدهر عجباً وإن تعجب فعجب قول قول بعض الناس: إن بني أمية جاؤوا لخير الناس، وسعادة الجماهير!..

في حين أن اسود صفحة في تاريخ البشرية هي صفحة التاريخ الأموي.. إنك لا تشم منها إلا رائحة الدم المسفوح الذي تفوح منه رائحة الحقد علىٰ الإسلام وأهل البيت.. وأكبر شاهد ودليل علىٰ ذلك، يزيد بن معاوية، وما صنعه بالحسين وأهل بيته.. الإمام الحسين ريحانة رسول الله الذي قال فيه النبي: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً» ولكننا نجد يزيد الجريمة والخبث، يقتل الحسين، ويسبي أهل بيته، من بلد إلى بلد، ومن أرض إلى أرض أمام رؤوس الأشهاد، ويطاف برأس سيد شباب أهل الجنة ـ بأمر يزيد ـ في أرجاء البلاد.

ولكن الله كان له بالمرصاد.. **﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾**.

﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفئدتهم هواء...﴾.

أجل لقد حكم يزيد بن معاوية، حكم البلاد ثلاث سنوات، وكان له في كل عام مجزرة ومذبحة.. ففي سنته الأولىٰ، قتل الحسين وأهل بيته.. في يوم عاشوراء وهو يوم لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية كافة، لما جرىٰ فيه من قتل ونهب، وسلب، ولم يسلم من ذلك حتىٰ الأطفال الصغار، والنساء، حيث منعوا عنهم الماء، وقتلوهم وهم في غاية العطش والظمأ، حتىٰ يصل الحقد الأموي إلى درجة، أنهم يمنعون الماء ليس عن الحسين وأهل بيته فقط، وإنما يمنعون الماء عن الطفل الرضيع الذي لم يتجاوز الشهر السادس من العمر.. فقتلوه على صدر أبيه الحسين عطشان صابراً محتسباً.

علىٰ أن يزيد لم يكن ليحكم إلا بدلالة بدعة ابتدعها أبوه معاوية، وما زالت مرعية إلى هذا «اليوم. وهي بدعة أن تكون الخلافة بالوراثة وليس بالشورى كما هو مقرر في الإسلام.

إن الإسلام العظيم الذي جاء من أجل المحرومين، والمعذبين في الأرض، قد تحول بفعل الأمويين إلى ملك عضوض.. تحول المجتمع أيام يزيد بن معاوية، إلى سجن رهيب لا يطاق.. تحول إلىٰ جحيم ليس في الإمكان السكوت عليها.

وكما مر علينا أن يزيد هذا كان خليعاً شارباً للخمر قاتل النفس المحترمة، وسيرته دلت علىٰ ذلك ففي السنة الأولى ـ كما مر علينا ـ قام بهذه المذبحة الأليمة التي جرت وقائعها وأحداثها يوم عاشوراء في العام الحادي والستين من الهجرة.. وفي السنة الثانية أباح المدينة المنورة، وراح جنوده يعيثون فساداً في الأرض.. وفي السنة الثالثة مات يزيد، وجيوشه تضرب الكعبة بالمنجنيق، والحجارة!.

وقد أعلن صراحة بكفره يوم قال:

لعبت هاشم بالملك فلا ... خبر جاء ولا وحي نزل..

ويصفه بولس سلامة في رائعة من روائع شعره يصف فيها يزيد وانحلاله وخلاعته فيقول:

رافع الصوت داعياً للفلاح ... اخفض الصوت في أذان الصباح
وترفق بصاحب العرش مشغولاً ... عن الله بالقيان الملاح
ألف الله أكبر لا تساوي ... بين كفي يزيد نهلة راح
تتلظىٰ في الكأس شعلة خمر ... مثل طي اللهيب في المصباح
عنست في الدنان فلم تدنس ... بلثم ولا بماء قراح
أيها المؤذن المبكر لا تهتف ... وإن شئت فاعتصم بالبحاح

هذا هو يزيد كما ينقله التاريخ، على رغم الأقلام التي كتبت التاريخ، فرغم إنها كانت أقلاماً تعيش في قصور بني أمية ولكن الحقيقة لا تهضم ولا يمكن طمسها أبداً... إن الحقيقة تظهر حتىٰ ولو بعد حين.

وهنا، تعالوا معي قليلاً إلى رحاب أبي عبد الله الحسين عليه السلام، لنراه ماذا يصنع أمام هذا الوضع المنهار في المجتمع الإسلامي، وأمام هذه الصاعقة التي نزلت على رؤوس المسلمين، والتي إسمها: يزيد بن معاوية.؟

ماذا يصنع الحسين؟.. وهل أمام الحسين إلا الرفض لهذا الحاكم الظالم؟..

أجل فلا طريق أمام سيد الشهداء غير الرفض المطلق للظالمين وأعوانهم.

وهنا نلقي نظرة سريعة وعاجلة علىٰ ملامح المجتمع الإسلامي أيام يزيد بن معاوية.

الإمام الحسين يصور ملامح المجتمع الإسلامي في أيام يزيد بن معاوية، وإلى أي درجة وصلت حالة الناس.. فالحق مذبوح تحت السنابك والأرجل،

والباطل آخذ بناصية المجتمع وقابض علىٰ زمام الناس.

وهنا يرفع الإمام الحسين عليه السلام صوته ليستنهض همم الناس ويشدهم إلى تحمل المسؤولية فيقول:

«أيها الناس ألا ترون إلى الحق لا يعمل به، وإلى الباطل لا يتناهىٰ عنه ليرغب المؤمن في لقاء ربه، فإني لا أرىٰ الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا شقاءً وبرما..».

في هذا المجتمع تكون السعادة في الموت وليس في الحياة، لأن الحياة تتحول إلى سجن رهيب لا يطاق..

إن هدف الأنبياء يتمثل في كسر القيود، وتحطيم الأغلال، وإعطاء الناس حرياتهم وعزتهم.. والإمام الحسين، هو أعظم من حمل مبادىء

الأنبياء وأهدافهم وقاتل من أجلها حتىٰ قتل دونها عطشان شهيداً، مظلوماً، وسجل بذلك أروع ملحمة بطولة في تاريخ البشرية كافة.

إن من أهداف محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو الرسول الأعظم وخاتم الأنبياء وسيدهم وزعيمهم، إن من أهدافه أن يحطم الأغلال التي كانت علىٰ الناس، ويكسر القيود التي تكبلهم ـ كما أسلفنا آنفاً ـ يقول القرآن الكريم: ﴿**يضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم**﴾.

ويقول في آية ثانية:

﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾.

فإذا كانت هذه هي مبادىء الرسول الأعظم محمد، فإن الحسين ابن هذا النبي العظيم، وهو أحق من يحمل مبادىء جده، ويضحي بنفسه وأهله في سبيلها.. ومن هنا قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً».

فحسين مني، واضح جداً.. ولكن التعبير كله يكمن في قوله: «وأنا من حسين» إذ أنه يشير إلى أن بقاء الإسلام بالحسين، ولولا الإمام الحسين لما بقي لهذا الدين من أثر.

ثم يواصل الإمام الحسين عليه السلام إعلان مبادئه وأهدافه فيقول:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من رأىٰ منكم سلطاناً جائراً مستحلاً لحرمات الله ناكثاً لعهد الله، يعمل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول، كان حقاً علىٰ الله أن يدخله مدخله».

وبعد ذلك نراه يعلن في صراحته المعهودة وهو يكشف عن أهدافه ومبادىء ثورته فيقول: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا مفسداً، ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، وأبي علي بن أبي

طالب، فمن قبلني بقبول الحق، فالله أولىٰ بالحق ومن رد عليّ هذا، أصبر حتىٰ يقضي الله بيني وبين القوم الظالمين، وهو خير الحاكمين».

وحين نلقي نـظرة واعية على أهـداف سيد الشهـداء أبي عبـد الله الحسين، نجـد أن أهدافـه تـدور في فلك الحق، فـالحق رائـده، والعـدل هاجسه.

إنه يقول: «ألا ترون إلىٰ الحق لا يعمل به وإلىٰ الباطـل لا يتناهىٰ عنـه ليـرغب المؤمن في لقاء ربـه فـإني لا أرىٰ المـوت إلا سعـادة والحيـاة مـع الظالمين إلا شقاءً وبرما».

أجل.. لقد كان الحق رائده، وهاجسه.. فهـو ابن رسول الله، وهـو ابن علي المرتضىٰ الذي قال فيه المصطفى:

«علي مع الحق، والحق مع علي يدور معه حيثما دار».

وهو أبي الضيم.. إنه يرفض الحياة بذل وهوان فنراه يقول:

«ألا وأنَّ الدعي ابن الدعي ـ يعني ابن زيـاد ـ قد ركـز بين اثنتين: بين السلة والذلة، ـ أي بين القتال أو الحياة بذل ـ وهيهات منا الذلة يأبىٰ الله لنـا ذلـك ورسولـه والمؤمنون، وحجـور طابت وطهـرت وأنوف حميـة، ونفـوس أبية، من أن نؤثر طاعة اللئام علىٰ مصارع الكرام».

وهـو أي الإمام الحسين عليه السلام عنـدما يشيـر إلىٰ الحجور التي طـابت، فإنه إنما يشير إلى دور الأم وحجـرها في التـربية، لأن حجـر الأم الصالحـة الطيبة، يصنـع جيلاً طيبـاً شجاعـاً يرفض الـذلة والهـوان، ولا يسكت علىٰ الـظلم أبداً. ـ وهـذه لفتـة رائعـة من سيـد الشهـداء وهي إشـارة إلى كيفيـة التـربيـة، ودور الأم العـظيم الـذي تؤديـه في تـربيـة أبنـاء يحملون الحسين ومبادئه الشريفة المقدسة.

ونحن حينما نقف بين يدي الحسين، إنما نقف بين يدي أعظم قائـد

عرفته البشرية بعد جده المصطفى.. لا.. بل هو أول قائد في الأرض كان مظلوماً فانتصر بمظلوميته أي بكونه مظلوماً. حتىٰ قال عنه غاندي محرر الهند:

«إني تعلمت من الحسين بن علي كيف أكون مظلوماً فانتصر..».

ولولا الإمام الحسين، لما بقي من الإسلام أثر.. وهذه الكلمة قالها المرحوم الشيخ محمد عبده رئيس الجامع الأزهر قال: لولا الإمام الحسين، لما بقي من هذا الدين من أثر..

ويكفي لمن يريد المزيد من المعرفة، لكي تبدو له صحة هذه الكلمة واضحة تلمع في أشعة الشمس، أقول: يكفي لمن يريد ذلك، أن يلقي نظرة علىٰ تاريخ الأمويين والعباسيين ومن سار في طريقهم ليرىٰ كيف كان هؤلاء قد بيتوا مؤامرة ضد الإسلام، وكيف كانوا يتربصون الدوائر بأهل البيت، بالإسلام.. حتىٰ كانت الحوراء زينب عقيلة بني هاشم، كانت قد أشارت إلى هذه المؤامرة البغيضة، أشارت إليها وكشفتها في خطبتها في مجلس يزيد وذلك حينما خاطبته بقولها:

فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، وهل رأيك إلا فند، وجمعك إلا بدد وأيامك إلا عدد يوم ينادي المنادي، ألا لعنة الله علىٰ الظالمين.

فكشفت بقولها: لا تمحو ذكرنا ولا تميت وحينا، كشفت عن المؤامرة التي كانوا يتربصون بها للإسلام.

وبالفعل انتصر الإسلام، بجهاد الإمام الحسين وتضحيته.. وانتصر الإيمان والحق.. لأن صاحب الحق دائماً هو منتصر حتىٰ ولو كان تحت حوافر الخيل عطشان غريباً لا ناصر له ولا معين.

وهذا هو لعمري، أعظم درس نتلقاه من سيد الشهداء أبي عبد الله الحسين.. وهو الدرس الذي لا يمكن أن ينسىٰ أبداً.

الدرس هو: أن الحق ينتصر. . والنصر للإيمان وأهله، للحق ورجاله.

لم يحدث أن حوربت شخصية في التاريخ كما حوربت شخصية الإمام الحسين عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

ولم يحدث أن تركت شخصيـة أثراً في انكسار القلوب، وفي البكاء، والخشوع، وهداية الناس إلى الحق كما تركت شخصية الحسين في الناس هذا الأثر البالغ. .

ولهذا نجد موكباً رهيباً من الأحاديث التي تتحدث عن فضل الإمام الحسين، وفضل زيارته، وفضل البكاء عليه، حتى أن الدمعة الواحدة تستدعي الخلود في الجنة، وأن بيـت الشعر الواحد يقتضي بيتاً في الجنة أكبر من الدنيا عشرات المرات. . ولكن في الوقت ذاته، في الوقت الذي نقرأ فيه هذا السيل النوراني، والفيض الرباني الغامر الذي يغمر الناس بنور الحسين وفضله، نجد في المقابل سيلاً ضخماً من الأحاديث التي صنعها الحقد الأموي، واللؤم العباسي، التي تحارب الحسين، وتسمي زيارته بدعة، والبكاء عليه بدعة.

لماذا؟

لأن للحسين قوة رهيبة في جمع الناس وإعطائهم الفكر، والوعي، والرشد، وتحريكهم ضد الظالمين.

وإذا أردت أن تعرف ذلك، فما عليك إلا أن تنظر أيام عاشوراء، أنظر إلى مجالس الحسين في كل بقاع الأرض، بل لا يكاد يخلو مكان من مجلس للحسين في شرق الأرض وغربها. .

ومن هنا كان لأدب الطف أثر بالغ في النفوس، بل أن أدب الطف هو أقوىٰ وأعظم أدب في تاريخ البشرية، وتاريخ الفكر الإسلامي.

ونظرة واحدة نلقيها علىٰ أدب الطف، وشعراء الإمام الحسين عليه السلام، تكفي للكشف عن هذه الحقيقة وهي أن الشاعر عندما يصل إلى ذكرىٰ الطف يتألق ويبدع أروع الإبداع.

وإني لمشدود إلى أدباء الطف، وشعراء الإمام الحسين، سواء كان في اللغة الفصحىٰ، أو العامية أي اللغة الشعبية، وربما أبدع أديب الشعر الشعبي بما لم يصل إلى شأوه أمير الشعراء وهذه حقيقة لا غبار عليها، يعرفها كل من له أدنى إلمام بذلك، وإنا اليوم مع واحد من هؤلاء الشعراء الذين حملوا صوت الحق، وساروا به في طريق الإمام الحسين عليه السلام ألا وهو الأديب الكبير والشاعر القدير، خطيب المنبر الحسيني، الأستاذ، السيد مرتضىٰ الحسني، خادم أهل البيت عليهم السلام . . أسأل الله له كل التوفيق في عمله هذا، وفي مشواره الطويل الذي كان وما زال وسيظل يقطعه دون هوادة، ودون تلكأ في المسير. . كما إني أرجو من الأخوة والأحبة والشباب أن يتخذوا من الأخ أبي حسنين قدوة لهم في هذا المجال، لكي يصعدوا المنبر، ويتألقوا في خدمة الحسين، فإننا في أمس الحاجة إلى الخطباء، وتربيتهم لأن منبر الحسين يشكو اليوم من الفراغ أكثر من أي وقت مضىٰ، وهي أمانة أضعها في أعناق الشباب الطيبين أمثال صاحب هذا الديوان المبارك. .

وأواصل معكم حديثي، عن البكاء والعاطفة، وأثرها في جمع الناس حول منبر الإمام الحسين عليه السلام .

أنا قتيل العبرة

جـرِّب أن تجلس في حجرة وتطفىءَ السراج. اطفىء الضوء، ثم أذكـر أسماء الخمسة أصحاب الكساء واحداً، واحداً. .

ابدأ بذكر أسمائهـم تدرك الحقيقة التالية:

وهي حينما تقول: يـا محمد. . يـا محمد. . يـا محمد. . وتستـرسل بذكر النبي صلى الله عليه وآله وسلم تشعـر بانشـراح في صدرك، وسعـادة تتدفق في داخلك. . ونفس الشيء عندما تذكر الزهراء فاطمة عليها السلام وتناديها باسمها: يـا فاطمـة. . يا فاطمـة. . يا فـاطمة. . وتستمـر بذكـر إسمها الـطاهر، تشعـر بموجـة من الارتياح تجري في أعماقك.

ومـا يقال في النبي والـزهـراء، يقـال أيضـاً في الإمـام علي، وولـده الحسن الزكي عليه السلام ، فحين تقول: يا علي. . يا علي. . يا علي. . وتستمر في الاستـرسال بـذكر الإمـام علي، تشعـر بـإحسـاس عميق إنـك في قمة السعـادة، بل تشعـر وكأن أمـواج الانشراح، والانفـراج تستولي علىٰ نفسـك ومشاعرك. . والإمام الحسن كذلك، فما تكـاد تذكـره، وتناديـه حتىٰ تلمس انفراجاً لـذيذاً يـدغدغ نفسـك، ويشرح صـدرك. . ولكن جرّب ـ ولـو لمرة واحدة ـ وأنت جالس في حجرتك تحت ضوء خافت أقـول: جرب أن تـذكر

الحسين عليه السلام فتقول: يا حسين.. يا حسين يا حسين.. لتجد أنك لا تستطيع أن تقول: أكثر من ثلاث أو أربع مرات وفي المرة الرابعة ما تكاد تقول: يا حسين، حتىٰ تفيض عيونك بالدموع.. بل أكثر من ذلك، في المرة الأولى حينما تنادي: يا حسين تأخذك موجة من الحزن، لا تهدأ إلا بالبكاء عليه.. يقول النبي الأكرم محمد بن عبد الله (صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ أهل بيته الطيبين الطاهرين)، يقول:

«إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تنطفىء إلى يوم القيامة».

ويقول الإمام الحسين عليه السلام: «أنا قتيل العبرة ما ذكرت عند مؤمن، ولا مؤمنة إلا وبكيا..».

ولذلك نقرأ في سيرة النبي أنه ما نظر إلى الحسين مرة، إلا وفاضت عيناه بالدموع.. ويحدثنا ابن عباس في هذا المضمار فيقول:

خرجنا مع النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم من المسجد وكان مستبشراً فوقع بصره علىٰ ثلة من الصبية كانوا قد مروا من أمام المسجد، وكان بينهم الحسين هو في الخامسة من العمر، فما كاد النبي يقع بصره على الحسين حتىٰ تغير لونه، واختفت البسمة من على شفتيه ثم فاضت عيناه بالدموع.

أجل.

إن في البكاء على الحسين سراً عظيماً من أسرار عظمة الإسلام، وعظمة الحق، وعظمة القرآن، وعظمة أهل البيت صلوات الله عليهم أجمعين فمن أدركه أي أدرك هذا السر العظيم في البكاء على الحسين فقد أدرك حقيقة الإسلام، وحقيقة الإيمان والتوحيد.

ومن هنا صار ثمن الدمعة جنة عرضها السموات والأرض، علىٰ رغم أنوف الذين لا يفقهون، ولا يعرفون حقيقة هذا البطل العظيم سيد شباب أهل الجنة الإمام أبي عبد الله الحسين، عليه السلام.

وبعد هذا فلا غرابة من الأحاديث والروايات الواردة من الرسول وأهل بيته والتي تتحدث عن حجم الثواب المترتب علىٰ البكاء علىٰ الحسين، وعلىٰ زيارة الإمام الحسين، بحيث تقول الأحاديث: من زار الحسين عارفاً بحقه أدخله الله الجنة.

ودقة التعبير التي جاءت في هذا الحديث تتمثل في قوله: عارفاً بحقه فمن دون معرفة حق الحسين وحقيقة الإمام الحسين لا يمكن للواحد منا أن يدرك عظمة الإسلام، وحقيقة أهل البيت عليهم السلام.

أحدثكم عن البكاء، أحدثكم ماذا يعني أن نبكي دموعاً، ونلف صدورنا بوشاح الحزن.

الدمعة أغلى شيء، وأثمن بضاعة في النفوس، ولو كان هناك شيء أثمن وأغلى من الدموع، لجادت به العيون، ولكن تبقىٰ الدمعة هي الأغلىٰ، وهي الأنفس لأنها تكشف عن جوهر الإنسان، وحقيقته.

فليس هناك أقوىٰ ولا أعظم تأثيراً في النفس من الشيء الذي يعرفك من أنت، ويكشف عن حقيقتك.

إن الدمعة التي تنزلق علىٰ خدك تتناثر ذراتها، تحكي قصة عظيم يقبع في داخلك.. تحكي قصة عملاق كريم يعيش في نفسك،.. ومن هنا صارت الدمعة، تدل علىٰ عظمة الإنسان الباكي.. وذلك أنَّ الإنسان العظيم له صفة، ألزم له من ظله، وهي كبر النفس، ورقة القلب، لأن كبر النفس ورقة القلب توأمان لا ينفكان، ورافدان متعانقان.

بخلاف النفس الوضيعة التي من شأنها غلظة القلب، ولذلك يجيء القرآن الكريم، فيصف النبي برقة القلب:

﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

وكما مر علينا أن سرعة الدمعة من صفات الإمام علي أمير المؤمنين.

واترك للشعراء سحرهم، وبلاغتهم، اترك لهم أعنة البلاغة، وناصية القوافي، واكتفي بنقطة واحدة هنا تخص البحث، فلنا مع الشعراء موقف جميل في هذا التقديم، طبعاً مع الشعراء المؤمنين الذين حملوا قضية الإسلام المقدسة ودافعوا من أجلها.. أقول: سيأتي الكلام حولهم في مكان آخر في هذه المقدمة، ولكن هنا فقط قول: إن من الشعر لحكمة.. صحيح أنَّ أغلب الشعراء في كل واد يهيمون، ولكنهم شبهوا فابدعوا.. شبهوا الدموع باللآلي، فما أروع هذا التشبيه ـ مجازاً، وحقيقة ـ

ولكن هل تعرفون أيها الأحبة، كيف يخرج اللؤلؤ من أعماق البحار، وكيف يتكون في أحضان الماء، وقاع المحيطات؟

إنَّ تكوُّن الدموع يشبه إلى حد بعيد، تكوُّن اللؤلؤ.

هنالك في أعماق البحار، يوجد حيوان الصدف اللؤلؤي، يجري تحت الموج في رقة وعذوبة، فإذا جرحته صخرة، أو اصطدم بحجر، تشقق منه الجسم، وانفتحت جراحه، فتسللت بعض ذريرات الرمل داخله، واستقرت في تلك الجراح فتكونت عليها أغلى درر العالم، وأثمن أنواع اللؤلؤ.

تلكم هي حكاية تكون اللؤلؤة!

فما اللؤلؤة ـ إذن ـ إلا ابنة الألم الطويل، وثمرة لوعة مستعصية، وحزن دفين.

أما تكوّن الدمعة، فما أشبه حكايتها بحكاية اللؤلؤة، فكما أن اللؤلؤة تولد من الألم كذلك الدموع تولد من الألم والحرمان، ولذلك كانت الدموع أوقع أثراً في النفوس من غيرها.. إن أهم الأعمال وأبقاها في النفس لا تأتي إلا عن طريق الألم.. وهكذا يكون الجرح الذي يكوِّن اللؤلؤ في أعماق البحار، هو نفسه يكوِّن الدموع في أعماق النفوس الكبيرة.. فحينما

ينجرح القلب تحت ضغط الحزن الشديد، عند ذلك تتحرك الدموع في العيون ثم تجري فوق الخدود كأنها اللؤلؤ المنثور.

وقد أثبت العلماء في مجال النفس، والتربية، أنَّ الدموع تسبب انشراحاً في الصدر، ويشعر المرء بعدها، بحالة انفراج تعمر كيانه ووجوده.

مثلاً في بكاء فاطمة الزهراء، وحزنها علىٰ أبيها الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم أقول: في بكاء فاطمة، نفهم معنىٰ البكاء، والحزن في الفكر الإسلامي، وفي رسالة الإنسان في الأرض.

فهي مثلاً، تصر علىٰ البكاء من جانب، والخصم يصر على المنع من جانب آخر. . وهذا إن دلَّ علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ أن للبكاء رسالة مقدسة، وأنّ البكاء أعظم سلاح يمكن أن يرفعه إنسان بوجه الظلم، واليأس، والطغيان. . وفاطمة حين تبكي، كانت تريد أن تعمق مظلوميتها، حتىٰ تعجل بإسقاط الظالمين.

وأهم ما في البكاء، أنه يحصد اليأس من النفوس، ويزرع الرجاء في القلوب. . بمعنىٰ أن الدموع تقتل اليأس، تحيي الأمل والرجاء.

وهذا النبي العظيم يعقوب عليه السلام نجده وهو في قمة الحزن والمحنة، يبكي حتىٰ يفقد بصره، ولكنه مع ذلك نجده يتدفق بالأمل والرجاء. . إنه فقد بصره من الحزن، ولكنه لم يفقد أمله وثقته بالله سبحانه وتعالىٰ. . يقول القرآن الكريم عنه: ﴿**وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم**﴾.

ثم يوجه كلامه إلى أولاده ليكشف لنا، للأجيال كافة: إن الحزن والبكاء من شأنهما الإبقاء علىٰ الأمل والرجاء، فيقول لأبنائه:

﴿**يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾.

إذن: فنحن هنا أمام إنسان في قمة الحزن، ولكنه لم يفقد الثقة بالله

أبداً.. إنه مليء بالأمل، والرجاء مليء بالإيمان بالله سبحانه.. إنه مليء باليقين إن النصر للحق والإيمان، وإن النصر للأمل والرجاء، فلا مكان عنده لليأس أبداً، لا لأن الذين يلفهم اليأس أولئك هم الكافرون..: ﴿**إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾ لأن الكافر يعتمد على الأسباب المادية، فإذا تعطلت الأسباب تعطلت حياته وانسدت الأبواب بوجهه.. في حين أن المؤمن يعلم أن وراء الأسباب خالقاً رحيماً ودوداً لا ييأس العباد من رحمته، لأن رحمته وسعت كل شيء.

ونجد هذه الفكرة يتناولها الإمام علي أمير المؤمنين في دعاء كميل حيث يقول:

«وارحم من رأس ماله الرجاء.. وسلاحه البكاء..». ويكشف الإمام هنا أن البكاء ليس فقط سلاحاً في مواجهة ضغوط النفس، ولكنه سلاح ضد جبهة الشر في كل مواقعها.

لا بد للشهيد من بواك

الشيء الـذي يريـح قلب الشهيد، ويجعله في روح وريحـان، وجنـة ورضوان، هو أن تجري الدموع عليه، وذلـك أن الدمـوع، أولاً، تنقلنا إلى أجواء الشهادة والشهداء. وثانياً تجعلنا نعيش أهدافهم العظيمة، ونتفاعل مع نفوسهم الكبيرة.

ولذلك لما حضر النبي مصرع عمه الحمـزة بن عبد المـطلب، ولم ير أحداً يبكي عليه، إذ لم تكن عنده واحدة من النساء لتقيم العزاء عليه، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حزن عميق قال: «أما عمي حمزة، فلا بواكي عليه».

وما كاد الرسول الأعـظم، يتم هذه الكلمـة، حتىٰ أسرعت إليـه نساء بني هاشم، وعقائل شيبة الحمد، من آل عبد المـطلب، وأمـامهن كبيرة بيت الوحي، وسيدة نساء العالمين، الصديقة الـطاهرة فـاطمة الـزهراء عليها السلام حتى أحطن بالحمزة وهو صريع علىٰ الثرى مخضب بدمـائه الزكيـة، وكان يـومها صائماً لله سبحانه وتعالىٰ.

وقد هدّ مصـرعه النبي، حتىٰ قـال: ما وقفت مـوقفاً أصعب عليّ من هذا اليوم لأنه كان قد تعرض للمثلة بعـد القتل، من قبـل هند وأبي سفيـان والحقـد الأموي الـدفين ضـد النبي وأهـل بيتـه.. أقـول: أحـاطت النسـاء

بمصرع الحمزة، وقد شاركن النبي في إقامة العزاء والمأتم عليه، حتىٰ ارتج المجلس بالبكاء، واهتزت الأرض تحت أقدام البواكي من كثرة البكاء والنحيب.

وقد استمرت الصديقة فاطمة الزهراء علىٰ إحياء هذه السنَّة وهي البكاء علىٰ الشهداء حتىٰ بعد دفن الحمزة حيث كانت تذهب كل خميس إلى قبر الحمزة بن عبد المطلب وتجلس حول القبر تعدد فضائله، وتبكي عليه.. وكلنا نعرف أن فاطمة حينما علمها أبوها النبي التسبيح المعروف بتسبيح الزهراء، ذهبت إلى قبر الحمزة لتصنع من ترابه حبات لمسبحتها؛ حتىٰ تجعل أهداف الشهداء أمام أعيننا وفي قلوبنا، فمع كل تسبيحة تحركها تحرك حبة مصنوعة من تراب قبر الحمزة. ومعنى ذلك: أن لا حياة للإيمان ولا بقاء للإسلام، إلا بحفظ أهداف الشهداء، ومن أبرز معالم حفظهم، زيارة قبورهم، وإقامة العزاء عليهم.

وفي أواخر أيام الزهراء، كانت تذهب إلى قبر أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم تأخذ قبضة من تراب القبر تشمه فتقول ودموعها تجري:

ماذا علىٰ من شم تربة أحمد ... ألا يشم مدىٰ الزمان غواليا
صُبت علي مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا

وفي السيرة النبوية، نجد النبي كان قد بكىٰ علىٰ ولده إبراهيم، وحزن عليه حزناً عظيماً ولما سألوه أجابهم بقوله:

«القلب يحزن، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الله ـ أي الجزع ـ وإنَّا علىٰ فقدك يا إبراهيم لمحزونون».

وهذا يدل على أن الحزن ليس حراماً في الإسلام بل هو من المستحبات الأكيدة وأحياناً يكون الحزن من أجل النبي وأهل بيته واجباً لأنه نابع من المودة لهم، وتابع لحبنا للنبي وأهل بيته.. وأما الشيء المرفوض في الإسلام فهو الجزع، وليس الحزن.

ولكي تتضح الصورة أحدثكم عن الفرق بين الجزع، والحزن في سطور سريعة وموجزة.

يقول القرآن الكريم:

﴿إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشر جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين الذين هم علىٰ صلاتهم يحافظون﴾ ـ إلى آخر السورة الكريمة ـ والقرآن هنا يحدثنا عن الإنسان الهلوع، وإنما صار هلوعاً لأنه ترك الصلاة ولم يحافظ عليها، فأصبح هلوعاً، وهذه صفته: وهو أنه إذا نزل به الشر تراه جزوعاً لا صبر له علىٰ المكاره، وإذا نزل عليه الخير، تراه منوعاً لا يكرم اليتيم ولا يبسط يده بالعطاء..

وهذا الإنسان هو الذي خان الأمانة وضيعها.. في حين أن الإنسان المؤمن الذي حافظ علىٰ دينه وإيمانه، وحمل الأمانة بصدق وإخلاص، أقول: هذا الإنسان تراه في المصيبة حزيناً وليس جزوعاً،.. والفرق بين الحزن والجزع، هو أن الحزين يرضىٰ بقضاء الله وحكمه، في حين أن الجزوع يعترض علىٰ قضاء الله ولا يرضىٰ بحكمه!.

ولأن الإنسان المؤمن مليء بالمشاعر العميقة والأحاسيس القوية، لذلك فإنه يطلق لنفسه عنان الحزن، وناصية البكاء.

فيحزن المؤمن ولكن حزنه جميلاً، لأنه يبكي وهو راضٍ بما أصابه من مصيبة إنه يردد قول الله تعالىٰ: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ علىٰ أن ذلك لا يمنعه من البكاء.. بينما غير المؤمن يجزع، ويعربد وتمر عليه المصيبة وهو يحمل أوزاراً فوق أوزاره.

وأجمل صورة لهذا الحزن الجميل يعرضها القرآن الكريم علينا في سورة يوسف عليه السلام حيث يتحدث عن يعقوب النبي، وكيف كان يبكي على

ولده يوسف: يقول: **﴿وتولىٰ عنهم وقال يا أسفىٰ علىٰ يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم..﴾**[1].

إنه حزن عميق أدىٰ إلى انعدام الرؤية في عيني يعقوب.. فهذا أب يبكي ابنه الغائب حتىٰ يفقد بصره، ومع ذلك فالقرآن الكريم يطلق صفة الروعة والجمال علىٰ هذا الحزن، يصفه بأنه جميل.. : قال: **﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾**.

أجل.. إن البكاء إلى حد العمىٰ.. والحزن العميق إلى درجة انعدام النظر، هو صبر جميل لأنه حزن، وليس جزعاً.

وإذا كان القرآن الكريم يمتدح يعقوب النبي ويصفه بالحزين الجميل، فإن معنىٰ ذلك أن البكاء صفة ملازمة للعظماء، لأن العظيم نفسه كبيرة، والنفس الكبيرة ـ دائماً ـ يصحبها القلب الرقيق، وصفة القلب الرقيق غزارة الدموع.. ولذلك نقرأ في مواصفات الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان غزير الدمعة، سريع العبرة.

وهذا كان حال النبي وأهل بيته عليهم أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام.. وإن لنا بهم لأسوة حسنة.. لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً..

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤ .

مصارع الشهداء

مقتل العباس واخوته

كان هاجسه النصيحة لله وللرسول ولسيده وأخيه الإمام الحسين وكانت النصيحة عند أبي الفضل تعني خوض الغمار من أجل الحق.

كانت النصيحة تعني أن تفدي الإيمان والعقيدة بنفسك وكل ما ملكت يداك.

النصيحة: أن تؤدي الأمانة وتجتنب الخيانة.

أن تكون صادقاً مع الله ومع الرسول ومع إمام زمانك.

أن تكون صادقاً مع نفسك.. صادقاً مع الناس.. صادقاً مع الحياة.

هذه هي النصيحة.. وأبو الفضل كان قد تشبع كيانه، وأضاءت أعماقه بنور النصيحة المقدسة هذه.. ولذلك يشهد له الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ سلام الله عليه ـ بذلك فيقول: «أشهد لقد بالغت في النصيحة وأعطيت غاية المجهود فبعثك الله في الشهداء، وجعل روحك مع أرواح السعداء، وأعطاك من جنانه أفسحها منزلاً وأفضلها غرفاً وجعلك في عليين وحشرك مع النبيين الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً».

أجل لقد استحق أبو الفضل العباس هذه المنزلة عند الله لأنه كان ناصحاً لله وللرسول ولعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ـ بمعنىٰ أنه أبلىٰ بلاءً حَسناً في الدفاع عن مبادىء الحق والعدل والحرية.. وعن الدين والإيمان والعقيدة.

وانطلاقاً من هذا المبدأ الذي حمله أبو الفضل العباس ـ عليه السلام ـ وضحىٰ من أجله.. نراه يقدم أخوته الثلاثة الذين هم من أمه أم البنين.. نراه يقدمهم للمعركة بين يدي أخيه أبي الضيم أبي عبد الله الحسين ـ عليه السلام ـ فيقول لهم: «تقدموا يا بني أُمي حتىٰ أراكم قد نصحتم لله ولرسوله، فإنه لا ولد لكم» وأراد أبو الفضل بكلمته هذه أن يثير همتهم، ويوقظ عزمهم إذ ليس أمامهم مانع من الاندفاع والمبادرة إلى الحرب والشهادة من أجل الحق الذي هو الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ.

وأترككم ـ الآن ـ مع الشيخ المفيد يروي لكم قصة العباس وإخوته وكيف جرت مصارعهم بين يدي أخيهم الحسين ـ عليه السلام ـ.

قال الشيخ المفيد رحمه الله: «لما رأىٰ العباس بن علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ كثرة القتلىٰ في أهل بيته، قال لإخوته من أمه (أم البنين) وهم عبد الله وعثمان وجعفر: تقدموا يا بني أُمي حتىٰ أراكم قد نصحتم لله ولرسوله الخ».

وتقدم أخوة العباس ولم يمض زمان يسير حتىٰ هووا كما تهوي النجوم إلى الأرض مضرجين بدمائهم ولما رأىٰ العباس مصرع أخوته بين يدي أخيه الحسين، وسمع بكاء الأطفال الصغار ينادون: العطش.. العطش. فلم يملك العباس أن أرخىٰ عينيه بالدموع ثم تقدم إلىٰ أخيه الحسين يطلب الرخصة، ويستأذنه بقتال القوم فقال له: أخي أبا الفضل «أنت صاحب لوائي.. وإذا مضيت تفرق عسكري» وهذه الكلمة من سيد الشهداء في حق أخيه العباس تدل علىٰ أن قمر العشيرة كان هو وحده يمثل

جيشاً في الدفاع عن الدين والعقيدة والحقوق. . ولكن أبا الفضل أكد طلبه هذا وألح على الحسين في استئذانه في قتال جيش الكفر والشرك والضلال. . ولأن الحسين سلام الله عليه كان حريصاً على أن يظل أخوه العباس إلى جانبه حياً إلى آخر لحظة حتى تشعر العائلة النساء والأطفال الصغار بالأمن والطمأنينة، لأن وجود حامي الظعينة في الخيام من شأنه أن يضفي جواً من الهدوء والطمأنينة في نفوس الأطفال والنساء وهذه حقيقة واضحة لدى كل فطن عارف بالأمور، ومجرى الأحداث إذ أن بقاء الحسين وحيداً فريداً يجعل العيال والأطفال في غربة ولوعة واضطراب، في حين أن بقاء أبي الفضل العباس مع أخيه الحسين يريح العائلة راحة لا يستهان بها أبداً. . وكان الحسين يدرك هذا المعنى بشكل جيد. . وكذلك أبو الفضل حيث كان على قدر كبير من إرهاف الحس وعمق الشعور.

إن الحسين سلام الله عليه ما كان يهدأ ولا يهجع حين يسمع بكاء امرأة أو طفل في الخيام. . وقد مر علينا في أثناء الحديث كيف كان الحسين يبعث أخاه العباس وابنه علياً الأكبر حتى يسكتا النساء والأطفال حين خطب الحسين وصار ينعى نفسه بقوله: ثم اقعنوا إليَّ ولا تنظرون. . إن وليَّ الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين. . فلما سمعت النساء هذا منه صحن وبكين وضربن وجوههن فارسل إليهن أخاه العباس وابنه علياً الأكبر ـ هكذا تقول الرواية كما مر علينا ـ وقال لهما: سكتاهن فلعمري ليكثر بكاؤهن».

وفي كلمة الحسين: «فلعمري ليكثر بكاؤهن» ظلال وأبعاد تكشف علاقة الحسين بهذه العائلة من جهة. . وتكشف عظمة وقدر بنات رسول الله من جهة ثانية. . إذ أن كلمة: فلعمري تعني أن روحي فداء لهؤلاء النسوة والصبية. . نفسي فداء لزينب ورقية. . نفسي فداء لدموع فاطمة وسكينة. . نفسي فداء للرباب وطفلها الرضيع. . هكذا كان يقول الحسين. . وهذا هو المقصود من كلمته: فلعمري ليكثر بكاؤهن.

المهم.. من كل ما تقدم نستخلص أن السبب وراء امتناع الحسين عن إعطاء أخيه الإذن والرخصة للقتال، هو حرص الحسين على أن يظل أبو الفضل مع العائلة إلىٰ آخر لحظة ممكنة. ولهذا لم يأذن له بالذهاب إلى المعركة، وإنما أعطاه الإذن في أن يجلب للأطفال والنساء ماءً من الفرات لأنه هو السقا.. وهو الذي أخذ هذه المهمة علىٰ عاتقه، فقال له الحسين:

«إذاً فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء» علماً أن الحسين في المرة الأولىٰ لم يأذن له وإنما بكىٰ بكاءً شديداً، وقال له: «يا أخي أنت صاحب لوائي وإذا مضيت تفرق عسكري» فلم يأذن له.. فعاد العباس للمرة الثانية وطلب منه الإذن قائلاً:

«يا أخي قد ضاق صدري، وسئمت الحياة، وأُريد أن آخذ ثأري من هؤلاء المنافقين» فقال له الحسين - : «إذاً فاطلب لهؤلاء الأطفال قليلاً من الماء».

فذهب العباس إلى القوم ووعظهم وحذرهم غضب الجبار وكان أبو الفضل العباس - عليه السلام - خطيباً بارعاً وقديراً فهو ابن علي الذي يقول: نحن أمراء الكلام فينا تنشبت عروقه وعلينا تهدلت أغصانه ولكن كلامه لم يؤثر في قلوب القوم لأنها قلوب عمياء خاوية علىٰ عروشها من العمىٰ.. وفي نهاية خطابه الذي ألقاه علىٰ الجيش، طلب منهم شيئاً من الماء للأطفال.. غير أنهم رفضوا أن يعطوه الماء حتىٰ ولا قطرة واحدة وقالوا له: لو كان تمام وجه الأرض ماءً وكان تحت تصرفنا لم نسقكم منه قطرة، إلا أن تبايعوا ليزيد وتدخلوا في طاعته.. فرجع أبو الفضل إلى أخيه وأخبره بمقالة القوم.. فاطرق الحسين برأسه وفاضت عيناه بالدموع لأنه يرىٰ قسوة الظمأ التي تضرب الأطفال الصغار وتدع شفاههم ذابلة من العطش.. وبينما العباس في ذلك إذ سمع الأطفال ومعهم سكينة بنت الحسين ينادون: العطش.. العطش، فرفع رأسه إلى السماء وقال:

إلهي وسيدي، أُريد أن أعتد بعدتي واملأ لهؤلاء الأطفال قربة من الماء.. فركب فرسه وأخذ سيفه ورمحه والقربة وقصد الفرات فأحاط به أربعة آلاف فارس، وهم الذين كانوا موكلين بالفرات وأخذوا يدافعون عن الفرات وحالوا بينه وبين ماء الفرات وجاءته السهام والنبال مثل المطر المنهمر.. ولكنه لم يعبأ بجمعهم ولا راعته كثرتهم.. فحمل عليهم وكشفهم عن طريقه ـ بعدما أوقع فيهم هزيمة نكراء، حيث قتل العشرات من أبطالهم وفرسانهم فتركهم صرعىٰ كأنهم أعجاز نخل خاوية.. ثم دخل الفرات مطمئناً غير هيّاب لذلك الجمع الغفير:

ودمدم ليث الغاب يسطو بسالة
إلى الماء لم يكبر عليه ازدحامها
وخاض بها بحراً يرف عبابه
ظبىً، ويد الأقدار جالت سهامها
ألمّت به سوداء يخطف برقها
البصائر من رعب ويعلو قتامها
جلاها بمحشود الفرارين أبلج
يدبّ به للدارعين حمامها
فملأها عن جانب النهر عنوة
وولّت هواديها يصلُّ لجامها
ثنىٰ رجله عن صهوة المهر وامتطىٰ
قِرىٰ النهر واحتل السقاء همامها

ثم اغترف من الماء غرفة، وأدناها من فمه ليشرب، فتذكر عطش أخيه الحسين وعطاشٰ أهل بيته وأطفاله، فرمىٰ الماء من يده وقال:

يا نفس من بعد الحسين هوني وبعده لا كنت أن تكوني

هــذا الــحـسـيــن وارد الــمـنــون وتــشــربـيــن بــارد الــمــعـيــن

تــا الله مــا هــذا فـعــال ديـنـي»

أجـل. . إن الدين الإسـلامي العظيم الـذي يربي أبـطالاً مثـل أبي الفضـل العباس، ويصنع رجالاً مؤمنين ربانيين مثـل بطل العلقمي قمـر بني هاشم لا يسمح بشرب المـاء في هذه الحـال، لأنه ليس من مبـادىء الإسلام ولا من فعـال الدين أن يستلذ أبـو الفضل بـالماء بينمـا عشـرات الأطفـال الصغـار شفاههم ذابلة من الظمأ والعطش ينتظرون عودته في الخيام.

إنه ليس من فعال الدين أن يستلذ أحد بـالماء في الـوقت الذي يـرىٰ فيه طائفة من النساء والأطفال قد أضرّ بها الظمأ.

ومن هذا المبدأ. . رفض أبـو الفضل أن يتـذوق طعم الفرات ولـذلك رمىٰ المـاء من يده. . علىٰ أنني أظن أن السبب الـذي جعل العبـاس يمـلأ يـده من الماء ثم يـرمي بها في الشـاطىء، إنما هـو أراد أن يؤكد أنـه أخـذ الماء ونزل في المشرعة وليس ثمة مانع من شرب الماء إلا الإيثار والمواساة والنخوة. . والأريحية. . والروح العلوية التي تجري في أوصالـه وعروقـه. . فدماء أبيه علي أمير المؤمنين تجري في عروقه وكان الإمام علي ينام جـائعاً طاوياً خشية أن يكون طفـل في أقصىٰ الأرض لم يتمكن من الحصول علىٰ رغيف من الخبز. . وإذا كان العباس ينحدر من نـور علي وصلبه فكيف إذاً يشرب من الماء في هذه الحال وهو يسمع بكاء الأطفال من العطش؟

إن العبـاس ضرب أروع الأمثلة في الفـداء والتضحية. . وفي الـوفـاء والنصيحة والإيثار، والمـواساة. . فهـو ابن علي أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ذلكم البـطل العملاق الـذي كان حكمـه يمتد علىٰ ثـلاثة أربـاع الكرة الأرضيـة، حيث كـانت دولة الإسـلام بقيادة الإمـام علي قـد ضـرب بحجمهـا «أقـطار الأرض وأفاق السماء» علىٰ حد تعبير البطلة المخدرة زينب العقيلة. . زينب

ابنة علي عليها السلام، حين وصفت حكومة أبيها بهذا الوصف لأنها قالت ليزيد: حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء وهذا يعني أن حدود الدولة الإسلامية كانت هكذا وبهذا الشكل واللون، وهي نفس الدولة التي كان قد أقامها أبوها علي أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ

أقول: إن أبا الفضل العباس كان ابناً لهذا البطل العظيم علي إمام المتقين الذي علمه ورباه وغذاه العلم والفكر، والبطولة والشجاعة والسماحة.. علمه الإيثار، والمودة.. والدفاع من أجل الحق والعدل، والحرية.. من أجل الدفاع عن الدين والعقيدة.. من أجل ذلك رفض أبو الفضل أن يهنأ بالماء أو أن يتذوق طعم الماء وقد أشار الإمام جعفر بن محمد الصادق ـ عليه السلام ـ إلىٰ هذه الحقيقة بقوله: ولعن الله من حال بينك وبين ماء الفرات..» وهذا يعني أنهم حالوا دون أبي الفضل ومنعوه من الماء حين ضربوه علىٰ رأسه ولم يتركوه يصل إلى الخيام حاملاً القربة والماء إلىٰ أطفال ونساء الحسين وهن ودائع الأنبياء وبنات الوحي والرسالة.

علىٰ أن هذا يشكل جانباً واحداً من القضية التربوية الكبرىٰ التي سارت حياة أبي الفضل عليها وجرت سيرته الذاتية في ضوئها، وظلالها.

أما الجانب الثاني فهو أن الإمام الحسين عليه السلام رأيناه كيف امتنع أن يشرب الماء قبل فرسه، وذلك حين دخل الحسين الفرات بعد مصرع العباس، وكان فرسه في غاية الظمأ فلما أقحم الفرس ليشرب الماء خاطبه الحسين بقوله:

أنت عطشان وأنا عطشان فلا أشرب حتىٰ تشرب.. فرفع الفرس رأسه كأنه فهم الكلام.

هكذا تقول الرواية.. ونحن نعرف أن الخيل تتمتع. من بين الحيوانات بالقدرة الفائقة علىٰ الفهم والفطنة واستيعاب الأمور، كما أكد ذلك علماء الحيوان، وقالوا: إن ذكاء الخيل يصل إلىٰ درجة أنها ليست فقط

تفهم الإشارة، وتدرك العبارة وإنما أكثر من ذلك حيث أنها تكتشف الزلزال الذي يضرب الناس قبل وقوعه بعشرين دقيقة وتصير تضرب بأرجلها وتصهل صهيلاً عالياً.

والمقصود هنا من كل ذلك هو: إذا كان الحسين عليه السلام يمتنع من شرب الماء لأن فرسه عطشان فكيف يشرب أبو الفضل من الماء وعشرات الأطفال والنساء في عطش وظمأ ؟ .

لهذا حين تذكر عطش الحسين، وعطش أطفاله الصغار، رمىٰ الماء من يده وراح يخاطب نفسه مدلاً عليها أنها نفس عظيمة والعظيمة تعتصم بالإيثار والمواساة.

«يا نفس من بعد الحسين هوني. .» ويصف أحد الشعراء دخوله إلى المشرعة وكيف لم يذق من الماء طعماً وهو غارفه فيقول:

«أبوه حيدرة من قبل علمه
ضرب الشجاعة قد شبت معاطفه
سل الشريعة عنه يوم خاض بها
هل ذاق للماء طعماً وهو غارفه
رمىٰ المعين بنهر من أنامله
وصد عنه وما بلت مراشفه
إن لم يزد هو معنىً في شجاعته
علىٰ أبيه فلم تنقص مواقفه»

ثم ملأ القربة وحملها علىٰ كتفه الأيمن وركب جواده وتوجه نحو الخيام مسرعاً ليوصل الماء إلى عطاش أهل البيت، فأخذوا عليه الطريق ،وتكاثروا عليه وأحاطوا به من كل جانب. . أما هو فجعل يصول في أوساطهم ويضرب فيهم بسيفه وهو يرتجز ويقول:

لا أرهب الموت إذا الموت زقا
حتىٰ أوارىٰ في المصاليت لقا
نفسي لنفس المصطفىٰ الطهروقا
إني أنا العباس أغدو بالسقا
ولا أخاف الشر يوم الملتقىٰ

ثم حمل عليهم كالليث الغضبان يضرب في أوساطهم بالسيف حتىٰ فرقهم وشتت جمعهم.. وأخذ يقترب من طريق الخيام شيئاً فشيئاً، غير أن القوم استجمعوا شملهم المشتت ولملموا جراحهم النازفة وعادوا مرة ثانية يقطعون عليه الطريق.. ولكن هذه المرة علىٰ نحو أشد، وبجمع أكثر من المرة الفائتة.. وكل ذلك إنما حدث بفعل نداء عمر بن سعد قائد الجيش الأموي حيث نادىٰ في أصحابه: ويلكم مزقوا القربة بالسهام.. وصوبوا سهامكم، ورماحكم إلىٰ صدره ووجهه.. فإن الحسين إذا شرب من الماء يأتي عليكم جميعاً - أي يفنيكم عن آخركم - (وهذا إن دل علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ ضعف عقلية ابن سعد..) إذ كيف يستطيع الحسين أن يشرب الماء وعنده عشرات النساء والأطفال ينادون العطش.. العطش.. في شفاه ذابلة ودموع جارية؟.. كيف يشرب الحسين من الماء في هكذا وقت.. والحسين من قد عرفناه.. إنه الإمام العابد الغالي.. رجل المبادىء.. وأبي الضيم.. الحسين بعد لحظات نراه كيف يمتنع من شرب الماء لأن جواده مد رأسه ليشرب فخاطبه الحسين - عليه السلام - : «أنت عطشان وأنا عطشان.. فلا أشرب حتىٰ تشرب..» أقول: كيف يمكن لرجل هذه خلعة، وتلك سجيته أن يشرب ماءً ويستلذ بطعمه في الوقت الذي يرىٰ فيه كل أطفاله الصغار وبناته ونساءه وهن ودائع بيت الوحي وبنات رسول الله، أقول: كيف يتأتىٰ لإنسان من سائر الناس - فضلاً عن أن يكون ذلك الإنسان هو ريحانة رسول الله.. كيف يتأتىٰ له: أن ينعم ويستعذب شرب الماء وبين يديه أطفال صغار قد هدهم العطش حتىٰ غارت عيونهم..

وذبلت شفاههم؟.

ولكن ماذا نصنع لواحد مثل عمر بن سعد الذي لا يفقه من الأمر شيئاً ولا يعرف أي معنى للإيمان ولا للمبادىء والمثل.. وهكذا فما أن سمع العسكر صوت ابن سعد يأمرهم أن يحولوا بين العباس وبين وصوله سالماً إلى خيام الحسين، حتىٰ هجم الجيش علىٰ أبي الفضل من كل ناحية ومكان ونزلت عليه سهامهم ورماحهم وحجارتهم نزول المطر لكثرتها وعدم انقطاعها.. ولكن أبا الفضل العباس رجل العقيدة والدفاع عن الحق.. رجل الإيمان والبصيرة، ما وهن عزمه، ولا ضعفت قوته.. وإنما استمر يواصل كفاحه ونضاله وجهاده حتىٰ يوصل الماء إلىٰ أطفال الحسين سالماً.. هذا هو جل همه في هذه اللحظة، لأن الحسين إنما أعطاه الإذن لجلب الماء إلى الأطفال لا للقتال ولذلك كان موقفه ليس موقف الهجوم وإنما موقف الدفاع عن القربة رغم أنه في بداية الحملة كان قد هجم علىٰ جيوش الشرك والكفر والضلال وفرقهم عن الماء وأوقع فيهم خسائر فادحة في الأرواح والمعدات.. إلا أنه هذه المرة لا يستطيع أن يشن عليهم هجوماً كما صنع في بداية قدومه إلى المشرعة، لأنه هنا إنما همه الأول والأخير هو أن يوصل الماء إلى خيام الحسين للأطفال والنساء.. وفيما هو يواصل مسيره نحو الخيام، إذ نصبوا له كميناً في الطريق فكمن له زيد بن الرقاد الجهني من وراء نخلة، وعاونه حكيم بن الطفيل السنبسي، فضربه علىٰ يمينه بالسيف فبراها.. وأخذ السيف بشماله، وضم اللواء إلىٰ صدره.. ثم حمل القربة علىٰ كتفه الأيسر.. وحمل علىٰ القوم كالليث الغضبان وهو يقول:

«والله إن قطعتمو يميني ... إني أحامي أبداً عن ديني
وعن إمام صادق اليقين ... نجل النبي الطاهر الأمين»

علىٰ أن هذه الروايات هي من الروايات المؤكدة، والتي تكشف لنا أن أبا الفضل ما كان يقاتل وسط المعركة وفي قلبها لأن ساحة القتال لم يكن فيها نخيل ولا أشجار وإنما النخيل يوجد ـ في العادة ـ علىٰ الشاطىء.. وهذا يعني أن أبا الفضل العباس لكي يوصل قربة الماء سالمة إلىٰ الحسين وأطفاله، فإنه قد أخذ طريق الشاطىء مسيراً له إلىٰ الخيام ولم ينطلق من المعركة وهو ـ أي هذا الأمر ـ واضح لمن يريد أن يعرف كم هو أبو الفضل العباس عظيماً وموفقاً في المحافظة علىٰ دينه ومبادىء عقيدته.. ولذلك كان يقول في اللحظة التي فقد فيها يمينه:

«والله إن قطعتمو يميني إني أحامي أبداً عن ديني»

إن أبا الفضل كان يحامي

عن دينه.. ذلكم الدين الإسلامي العظيم الذي جاء لتحرير البشرية وخلاص الإنسانية من العبودية والذل والاستبداد.

وقاتل سلام الله عليه ـ حتىٰ ضعف عن القتال.. فكمن له حكيم بن الطفيل الطائي، من وراء نخلة وضربه علىٰ شماله فقطعها من الزند فقال العباس يخاطب نفسه:

«يا نفس لا تخشي من الكفار وأبشري برحمة الجبار

مع النبي المصطفى المختار قد قطعوا ببغيهم يساري

فأصلهم يا رب حر النار»

وعند ذلك سقط السيف من يده وأحنىٰ علىٰ القربة وجعل يسرع ليوصل الماء إلىٰ المخيم.. ولما نظر ابن سعد إلىٰ شدة اهتمام العباس عليه‌السلام بالقربة.. صاح بالقوم:

«ويلكم، ارشقوا القربة بالنبل فوالله إن شرب الحسين من هذا الماء، أفناكم عن أخركم»(١).

وهنا جاءه وابل من السهام والرماح. . فأصابت القربة فأريق الماء واندلق علىٰ وجه التراب، ولا شك أنها كانت صدمة عنيفة لأبي الفضل لأن إيصال الماء إلى خيام الحسين كان له معنىً كبير عند باب الحوائج أبي الفضل العباس، ولكن ماذا يصنع وهذه القربة أمامه قد تمزقت واندلق ماؤها في التراب. . هكذا كان يفكر والسهام لم تنقطع عنه لحظة واحدة. . فجاءه سهم فأصاب صدره. . وسهم آخر أصاب إحدىٰ عينيه فأطفأها. . وجمدت الدماء علىٰ عينه الأُخرىٰ فلم يتمكن أن يبصر بها طريقه. . وهنا وقف العباس متحيراً لا يدري ماذا يصنع. . فليس له يدان فيدافع بهما. . ولا عين فيرىٰ بها طريقه. وبالتالي فلا ماء عنده ليوصله إلى الأطفال الرضع الذين قد صرعهم العطش. . وفيما هو علىٰ هذه الحال إذ ضربه لعين من أزلام يزيد علىٰ رأسه بعمود من حديد. . فانقلب عن ظهر فرسه، وهوىٰ إلى الأرض صريعاً والعلم إلى جانبه وجعل يخور بدمه. . فانهال القوم عليه بأسيافهم فما تركوا مكاناً في بدنه إلا ونالته سيوفهم.

وهوىٰ بجنب العلقمي فليته للشاربين به يداف العلقم

وغدا يهم بأن يصول فلم يطق كالليث إذ أظفاره تتقلم

فعند ذلك نادىٰ ـ برفيع صوته ـ: عليك مني السلام أبا عبد الله ـ وما كاد الحسين ـ عليه السلام ـ يسمع صوت أخيه العباس، حتىٰ حمل علىٰ القوم وحاربهم حرباً لا هوادة فيها وهم يفرون من بين يديه وصوته يلاحقهم: إلى أين تفرون وقد فتتم عضدي، حتىٰ أوقع فيهم هزيمة نكراء. . وأنزل في

---

(١) مقتل الحسين للسيد بحر العلوم ص ٣٢١.

جيوشهم أكبر الخسائر وأفدحها. . ولا غرابة في ذلك فهو ابن علي. . وهو الشجاعة والبطولة والبسالة كلها. . فليس مستغرباً أن يوقع بهم هذه الخسائر حتىٰ قال بعض المؤرخين أن القتلىٰ الذين وقعوا في صفوف العدو من حملة الحسين كانوا يعدون بالمئات (فمن الفوارس فقط كان قد قتل ثمانمائة فارس)[1].

أقول: لا غرابة في ذلك أبداً فالإمام الحسين ـ سلام الله عليه ـ كانت له هيبة، وسطوة علىٰ القلوب بشكل رهيب، بحيث إذا رأوه قادماً نحوهم اهتزت أبدانهم. . واضطربت قلوبهم هلعاً وخوفاً من الحسين. . وعلىٰ أنه في مثل هذه الحال يكون الجيش يضرب بعضه بعضاً وتتكدس الخيول علىٰ بعض وأكثر القتلىٰ إنما يقعون بسبب تراكم الخيول بعضها فوق بعض كما نرىٰ ذلك يحدث أحياناً في الأفلام الحربية. . المهم أني إنما أردت فقط أن أقرب هذه الفكرة إلىٰ الأذهان. . لأن بعض الناس بمجرد أن يسمع خبراً من هذا اللون يسرع إلى تكذيبه ونفيه من دون أن يكون لديه دليل يدل علىٰ ما ذهب إليه. .

علىٰ كل حال. . فمهما يكن من أمر فلا شك أن الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ كانت له قوة وهيبة تفوقان التصور، بل تنخلع لهما القلوب والرقاب. . فلما سمع صوت أخيه العباس أتاه مسرعاً كالصقر إذا انحدر إلىٰ فريسته ـ وهذه الروايات التي تصف الحسين تارة بالصقر. . وتارة بالأسد. فإنها تشير إلىٰ حالة الإمام الحسين حين هجم على القوم يريد أن يثأر لمصرع أخيه أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ فلما وصل إليه رآه مقطوع اليمين واليسار مفظوخ الهامة. . مثخناً بالجراح. .

العلم إلى جنبه ممزق تكسوه الدماء والقربة مخرقة وقد جف الماء

---

(١) كتاب نور العين في مشهد الحسين.

فيهـا. وهو يفحص بـرجليه.. وهـذا يعني أن الحسين أدرك أخاه وفيـه رمق من الحياة فجلس عند رأسه منادياً:

أخي أبا الفضل الآن انكسر ظهري وقلت حيلتي وشمت بي عدوي.

والرواية أنقلها لكم كما هي:

«قـالوا: فـأدركه الحسين، وبـه رمق الحيـاة، فـأخـذ رأسـه الشـريف ووضعـه في حجـره، وجعـل يمسـح الـدم والتـراب عنـه.. ثم بكىٰ بكـاءً عالياً.. وقال: الآن انكسر ظهري وقلّت حيلتي وشمت بي عدوي».

ثم انحنىٰ عليه واعتنقه، وجعل يقبّل موضع السيوف من وجهه ونحـره وصدره:

فـمشـىٰ لمـصـرعـه الـحـسـيـن وطـرفـه
بـيـن الـخـيـام وبـيـنـه مـتـقـسـم
ألـفـاه مـحـجـوب الـجـمـال كـأنـه
بـدر بـمـنـحـطم الـوشـيـج مـلـثـم
فـأكـب مـنـحـنـيـاً عـلـيـه ودمـعـه
صـبـغ الـبـسـيط كـأنـمـا هـو عـنـدم
قـد رام يـلـثـمـه فـلـم يـر مـوضـعـاً
لـم يـدمـه عض الـسـلاح فـيـلـثـم

وبعد أن نفض الحسين يديه من أخيه العباس رجع إلى المخيم باكي العين.. منحني الظهر يمسح دموعه بكمه ـ فاستقبلته ابنته سكينة تسأله عن عمها أبي الفضل فأخبرها الحسين بمصرعه فنادت:

واعماه.. وعباساه..

وسمعتها زينب فصاحت واأخاه واعباساه.. واصنيعتنا بعدك.

أخي من يحمي بنـات مـحمـد إن صرن يسترحمن من لا يـرحم
هـوّنت يا ابن أبي مصـارع فتيتي والجـرح يسكنـه الـذي هـو ألم

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين ـ عليه السلام ـ:

«رحم الله عمي العباس بن علي فلقد آثـر وأبلىٰ وفـدىٰ أخـاه بنفسـه حتىٰ قطعت يداه فابدله الله بجناحين يطير بهمـا مع المـلائكة في الجنـة.. كما جعل لجعفر بن أبي طالب.. وإن للعباس عند الله تبـارك وتعالىٰ منـزلة يغبطه عليها جميع الشهداء يوم القيامة»[1].

(١) من كتاب العباس للمقرم ص ٢٢٣.

هكذا يفكر شبابنا

سألني شاب جامعي ـ وقد بدت علىٰ وجهه آثار الحيرة ـ:

هل العباس حقاً يدافع عن المقدسات والمبادىء؟

قلت: نعم فسيرة أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ الذاتية كلها منصبة في هذا المسعىٰ، وحياته حافلة بمواقف الدفاع عن العقيدة والحق والحرية، والعدالة الاجتماعية. .

قال لي ـ والحيرة تتسع في عينيه: إذا كان العباس حقاً يدافع عن المقدسات ـ كما تقول ـ فلماذا ـ إذن ـ لم يدافع عن ضريحه ومنارته وهي منارة مقدسة فقد سمعت اليوم خبراً يقول:

إن جنود العدو أطلقوا النار علىٰ مرقده المقدس، فقصفوا منارته الشريفة بالقذائف ونيران الأسلحة. . . ثم واصل يقول: وهذا يؤلمني جداً ويجعلني حزيناً إلى أبعد الحدود إذ كيف يمكن لجنود أوغاد أن يتجرأوا، ويتطاولوا علىٰ ضريح أبي الفضل العباس المعروف بالدفاع عن الحق والمبادىء الإنسانية فيقطعوا منارته وفي الوقت ذاته لم يصدر أي رد فعل من أبي الفضل العباس تجاه هذا العمل الشنيع، لذلك قررت أن أترك الصلاة، وأعيش هكذا بلا دين إلى آخر عمري!.

قلت له ـ في هدوء، وقد وضعت يدي علىٰ كتفه ـ:

قَلْ لي: أيهما أعظم عند الله وعند الناس جميعاً منارة العباس أم يده؟

قال: يد من؟

قلت: يد أبي الفضل العباس.. أيهما أعظم يد أبي الفضل العباس أم منارته؟

قال: لا شك أن يده أعظم عند الله وعند الناس من منارته لأن يده يد علي والحسن والحسين وقد قبلها هؤلاء جميعاً بالإضافة إلىٰ الإمام زين العابدين.. زد علىٰ ذلك أن يده قطعت من أجل الحق ومن أجل الدين وقد قال: والله لو قطعتمو يميني إني أحامي أبداً عن ديني!!

قلت له: بارك الله فيك، وأحسنت كثيراً علىٰ هذا القول الرائع وكم أنا مسرور بسماعي لك وأنت تتحدث بهذا الشكل إنني فخور جداً ومسرور أيضاً حينما أجد شاباً جامعياً يحمل هذه الثقافة الإسلامية الرائعة وفي الوقت نفسه أتساءل: كيف يمكن لشاب جامعي في مثل ثقافتك هذه أن يفكر بقطع الصلاة وينوي ترك الدين إلى آخر العمر؟

ولكن مع ذلك كله، فالأمل كبير بعودتك إلىٰ حظيرة الإيمان والثقافة الدينية التي أنت لست بعيداً ولا غريباً عنها كما يؤكد ذلك منطقك هذا وموقفك هذا ـ

إن الحق يا بني في قطع منارة العباس ـ عليه السلام ـ ليس علىٰ العباس وإنما علينا نحن المسلمين الذين تركنا الجهاد والمبادىء الإسلامية وركنًا إلى الراحة والدعة والترف حتىٰ وصلت حالتنا إلىٰ ما وصلت إليه الآن.

إن الدفاع عن منارة العباس وضريح علي، وقبة الحسين ـ عليه السلام ـ ليس شأناً يخص أهل البيت بمقدار ما يخصنا نحن.. لأننا نحن المعنيون بالأمر، وذلك أن أبا الفضل العباس قد أدىٰ ما عليه من دور في نصرة الحق

ويوم قطعوا يمينه قال:

والله إن قطعتمو يميني إني أحامي أبداً عن ديني

إذن: فالعباس حامىٰ عن دينه وبقي علينا نحن أن نحامي عن الدين كما حامىٰ العباس عنه، ومنارة أبي الفضل هي رمز للعقيدة والدين والمبدأ.. مبدأ الحق والحرية والعدالة الإنسانية، فإذا ضربت فإن الواجب علينا أن نهب للدفاع عنها لا أن نطرح أسئلة علىٰ أبي الفضل العباس لماذا لم يخرج هو من ضريحه ويدافع عن منارته.. إن هذا اللون من التفكير هو جزء من الحالة المتردية التي نعيشها نحن المسلمين في هذه العصور التي أقل ما يقال فيها: إنها عصور انحطاط وهبوط.

إن منارة العباس شأنها شأن العتبات المقدسة الأخرىٰ لا تخص أبا الفضل وإنما تخصنا نحن لأنها رمز لعقيدتنا وإيماننا بالله وبالحق ويجب ألا ننتظر من أهل البيت أن يخرج الواحد منهم من قبره ويشق الصفوف مصلتاً سيفه للدفاع عن أُمة كسولة خانعة ذليلة تخاف أن يتخطفها الناس من حولها.

كلا.. لا يمكن أن تمشي الحياة علىٰ المعجزات، وإنما الحياة تجري وفقاً للأسباب والعوامل والسنن التي زرعها الله سبحانه في هذا الكون وجعل تطبيقها والعمل بها يؤدي إلىٰ السعادة والنصر والسيادة في الدنيا والآخرة.. في حين أن المخالفة لهذه القوانين ليس وراءها إلا الضياع والتمزق والحرمان، وهو بالضبط ما يعاني منه اليوم المسلمون في شرق الأرض وغربها. ونحن نعرف أن الوهابية حين هدمت قبور الأئمة المعصومين في البقيع إنما قامت بأبشع جريمة يمكن أن ترتكب ضد عقيدة أُمة من الأمم لأنه عمل بربري همجي ضد العلم والدين، والأخلاق والنور والإيمان وبالتالي ضد القرآن الكريم وضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأن هؤلاء

الأئمة ـ هم أبناء الرسول وهم الـذين حملوا علوم القرآن وأخـلاق النبي إلى العـالم أجمع. . فمن منـا لا يعرف من هـو الإمام الحسن عليه السلام الـذي كان يحمله جـده النبي علىٰ صدره ويقـول: الحسن والحسين سيدا شبـاب أهل الجنة. . الحسن والحسين ريحانتاي من الدنيا. . ؟

ومن منـا لم يسمـع بـزين العـابـدين علي بن الحسين ذلكم الـرجـل العـظيم الذي مـلأ الـدنيـا علمـاً وخشـوعـاً وزهـداً وعبـادة حتىٰ صـار زين العابدين مضرب الأمثال للنـاس الذين يفتشـون عن الحق والعدل والحـرية، ويبحثون عن معنىٰ العبادة والزهد في هذه الدنيا الدنية؟.

ومن منـا لا يعرف من هـو الإمام محمـد بن علي الباقـر ذلكم الرجـل الفذ العظيم الـذي أطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم عليه هـذا اللقب لأنه بقـر العلم بقراً، وهـو أول من وضع القـواعد والأسس لجـامعة العلوم الإسـلامية، ولحضـارة الإسلام التي واصل المسيرة فيها ولده الإمام جعفـر بن محمد الصـادق عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام ـ ومن منا لا يعرف من هو الصادق الذي سارت الركبان بعلومه وطبقت شهرته الأفاق حتىٰ كان في جامعتـه الإسلاميـة قرابـة أربعة آلاف طالب علم وكل واحد منهم كان عالمـاً نحريـراً يقول: حـدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام . .

ويكفي أن نعرف أن أئمة المذاهب الأربعة إنما هـم تخرجوا من تحت يد هذا الإمام إما مباشرة وإما بواسطة مثل مـالك، والنعمـان بن ثابت الـذي درس حولين كاملين في مدرسة الإمام الصادق، وقال بعدها:

«لولا السنتان لهلك النعمـان. .» وهنـا أبـو حنيفـة يؤكـد هـذه القـدرة العلميـة الكبيـرة التي كـانت في مـدرسـة الإمـام الصـادق عليه السلام . . علىٰ أن العالم اليوم يدين بحضارته لمدرسة الإمام الصادق التي نقلت نور الحضـارة الإسـلامية إلى العـالم أجمع. . وإني ـ والله ـ لتـأخـذني الـدهشـة حين أرىٰ هؤلاء العظماء لا أضرحة لهم ولا قباب تنير درب الأجيال تدل عليهم وإنمـا

قبورهم سويت مع التراب وكأنهم أعراب بادية وليسوا زعماء حضارة وقادة فكر تخر لهم العمالقة وتذوب بين أيديهم العباقرة. .

يحدث مثل هذا في الوقت الذي نجد فيه الأمم الكافرة كيف تحترم عظماءها وتقدسهم وتخصص لهم أياماً من وقتها للدراسة حياتهم وتنصب لهم التماثيل في العواصم وتنشر فكرهم علىٰ الأقمار الصناعية في كل أرجاء الدنيا علىٰ الرغم من أن أولئك العظماء الغربيين لو أخذنا كل علومهم وفكرهم الحضاري وجمعناه فإنه لا يساوي ولا يشكل سوىٰ قطرة واحدة في بحر الحضارة الإسلامية العظيم المتمثل بأئمة المسلمين وخصوصاً هؤلاء العظماء الذين تعرضت قبورهم للهدم في البقيع وهم علىٰ التوالي: الإمام الحسن والإمام السجاد علي بن الحسين والإمام الباقر محمد بن علي والإمام الصادق جعفر بن محمد عليهم أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام.

وعندما وصلت إلىٰ هذه النقطة من الحوار مع الشاب الجامعي رأيت الدموع تفيض من عينيه ثم صافحني وشد على يدي وهو يقول:

الآن أدركت أن المسؤولية تقع علينا نحن المسلمين. . وان قصف منارة العباس إنما هو من باب الامتحان لنا ليعلم الله الصادقين من الكاذبين. . ولا أشك أنَّ الله سيسألنا غداً عن موقفنا تجاه هذا الحادث الجليل، ثم ودعني وذهب ودموعه تنهمر علىٰ خديه.

أما أنا فجلست بعد انصراف هذا الشاب أحرر الصفحات التالية التي هاجت بها أشجاني وأحزاني وحركت مشاعري والدموع في عيني فكانت الصفحات التالية فتعالوا معي نقرأها ونبكي لنأخذ الدروس والعبر.

من يعظم شعائر الله

أهم شيء في الأمة ـ أية أمة ـ مقدساتها، وخصوصاً القيادة الروحية ومراكز العبادة. . وحين توجه ضربة إلى أحد هذين الرمزين أو كليهما فإن رد الفعل المتوقع هو أن تثور الأمة وتقدم دمها وتعلن استنكارها من أجل الحفاظ علىٰ مبادئها ومقدساتها. .

وإذا وقع مثل هذا الخطر ولم تتحرك الأمة فإن ذلك يشير إلى وجود خلل في تركيب هذه الأمة، في القيادة أو في القاعدة، ودائماً: كيفما تكونوا يولىٰ عليكم، هذا جانب وجانب آخر وانطلاقاً من هذه القاعدة فإن الأمة عندما تكون منحطة وهابطة يكون القائد عليها منحطاً وهابطاً هو الآخر وهذا ما حصل أيام الأمويين والعباسيين حين فقدت الأمة هويتها وباعت آخرتها بدنيا غيرها.

المهم ليس هنا محل هذا الكلام وإنما أردت فقط أن أشير إلى حقيقة واضحة ليس عليها غبار وهي: إنَّ عظمة الأمة وقوتها إنما تظهر بإظهار إيمانها العميق بمقدساتها واعتزازها بشعائر دينها ومبادىء إسلامها ومنهجها في الحياة. . هذا طبعاً بالنسبة للأمة الإسلامية التي كانت يوم كانت قبل الإسلام أمة تشرب الطرق وتقتات القد أو الورق. أبناؤها أذلة خاسئون يخافون

أن يتخطفهم الناس من حولهم فأنقذهم الله بمحمد وأهل بيته صلى الله علىٰ محمد وآله الطيبين.

وانتقلت الأمة من البداوة إلى طور الحضارة حتىٰ صارت خير أمة أخرجت للناس، طبعاً ما دامت متمسكة بالقرآن الكريم والعترة الطاهرة، فلما تركت القرآن والعترة انتكست وانقلبت علىٰ وجهها، ولا زالت في نكسها تعاني من الجراح العميقة التي فتحها العدو في جسدها المتهافت الضعيف واستمرت الحال علىٰ هذا المنوال إلىٰ أيامنا هذه ونحن في مطلع عام ١٤١٢ هجرية المصادف عام ١٩٩٢ ميلادية..

وننظر ما يجري في العراق على المقدسات وعلىٰ المرجعية فالمرجعية الدينية تعرضت لأبشع ألوان الاضطهاد كما تعرض أهل العلم ورجال الدين لنفس المصير فقتل من قتل وسجن من سجن وأُبعد من أبعد، هذا طبعاً بالنسبة للعلماء ورجال الفكر والأدب.. أما الشعب فقد قدم أروع وأنبل وأنصع صور التضحية والفداء.. وإنه لشعب منتصر عاجلاً أم آجلاً فالنصر لا محالة قادم إلىٰ هذا الشعب البطل المجاهد الذي انتفض من بين الأنقاض وركام الحرب وحطام القصف ونفض الغبار من علىٰ وجهه وتحرك وراح يناضل ويجاهد حتىٰ دك عروش البغي وأوكار الخيانة ليس ببغداد وحدها، وإنما في جميع أرجاء القطر العراقي وإنما أذكر العراق هنا بالذات لأنه يمر بمرحلة هي أخطر مراحل حياته أو أخطر المراحل التي يمكن أن يمر بها شعب إضافة إلىٰ أنه يمثل بقية الشعوب المضطهدة التي تعاني من نفس المشكلة، وذات المصير.. علىٰ أن الدمار كان كبيراً ومؤلماً ولكن الغاية أكبر وأعظم.

والكلام الذي أريد أن أسجله هنا هو: إنَّ الذي جرىٰ ويجري في العراق أكبر وأعظم مما نسمع ونرىٰ. لقد قتلوا ودمروا، وضربوا حتىٰ المشاهد المقدسة وهدموا العتبات المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء

المقدسة، وفي سامراء والكاظمية.. بشكل وحشي لم يسبق له مثيل في تاريخ الحروب.. لا الأهلية منها، ولا غير الأهلية.

إن ضريح الإمام الحسين ـ عليه السلام ـ قد قصف بقذائف وزعته هنا وهناك.. كما جرت مذبحة كبيرة في داخل حرم الإمام الحسين.. ونفس الشيء حدث وجرىٰ في النجف الأشرف حيث ضربوا ضريح الإمام علي ـ عليه السلام ـ بقذائف وصواريخ وقد رأيت فيلماً في هذا المجال فرأيت زيارة أمين الله وهي تحترق علىٰ ضريح أمير المؤمنين علي ـ عليه السلام ـ.

وما يقال في الإمام علي يقال أيضاً في قبة ولده أبي الفضل العباس ـ عليه السلام ـ حيث ضربت هي الأخرىٰ كما قطعت منارة العباس.

وإني والله أكتب هذه الكلمات والألم يعتصر قلبي لأنني أجد الوجوم والجمود يستولي علىٰ الناس فلم يتحرك منهم أحد لإعلان الغضب والاستنكار!.

أجل.. فلم يحظ هذا العمل البربري المتوحش بردة فعل تناسب حجمه وتوافق عظم المسؤولية وهذا ممّا يزيد في الطين بلة وفي القلب علة

إن قذيفة واحدة ضربت جدار الفاتيكان في الحرب العالمية الثانية بالغلط أي أن القذيفة جاءت بالخطأ ووقعت علىٰ جدار الفاتيكان فما كاد العالم المسيحي يعرف بالخبر حتىٰ هبت الشعوب عن بكرة أبيها تشجب هذا العمل وتندد بهتلر، وخرجت مظاهرات عاصفة وعارمة في كل عواصم العالم وكلها تستنكر وتشجب هذا التطاول والتجاوز الذي طال جدار الفاتيكان وهو مكان مقدس.. ولم تهدأ العاصفة حتىٰ اضطر هتلر أن يخرج علىٰ الراديو يخاطب الناس ويعتذر مما حصل وقال بالحرف الواحد:

أيتها الشعوب الحرة إنني أقدم لكم اعتذاري لما حصل لأن هذه

القذيفة جاءت بالغلط وضربت جدار الفاتيكان، ونحن لا نملك إلا الحسرة أو الألم لما حصل ومع هذا فأنا اعتذر وأقدم اعتذاري وأطلب السماح منكم بشكل رسمي.

هذا هتلر يعتذر من قذيفة واحدة ضربت الفاتيكان.. وقبل أيام من كتابة هذا المقال هجم جنود أنديرا غندي علىٰ المعبد الذهبي وأطلقوا عليه النار فما كان من الهندوس أو السيخ إلا قاموا برد فعل عنيف أودىٰ بحياة رئيسة وزراء الهند فوقعت علىٰ الأرض مضرجة بدمائها لأنها سمحت لاثنين من جنودها أن يطلقا النار علىٰ المعبد الذهبي في الهند وهو دار عبادة مقدسة للهندوس.

فما لنا نحن ـ أيها الأخوة ـ ما لنا والخطوب تعدو علينا كل يوم مفوقات نصولاً؟.

ودون أن نرد علىٰ هذا العمل حتىٰ ببرقيات استنكار نبعثها إلى الأمم في العالم، وكأن دماءنا رخيصة لا قيمة لها.

وهنا أود أن أنقل لكم صورة ولقطات ما يجري في العراق وخصوصاً ضد المراقد المقدسة.. ولأننا نتحدث في كتاب أبي الفضل فالقصة التي أنقلها لكم هي خاصة من أرشيف هذه المدينة البطلة وبالذات من حي أبي الفضل العباس في كربلاء المقدسة.

علىٰ أن المسؤولية تقع علينا نحن قبل كل الناس لأننا تقاعسنا وتواكلنا وتخاذلنا وراح بعضنا يضرب البعض الآخر فبدل أن نلتفت إلى العدو ونعرف مكائده ومصايده التفتنا إلى قضايا جانبية وأنفقنا وقتنا عليها هباءً منثوراً ومحنتنا بدأت من هذه الهوة أو الفجوة السحيقة التي ضربت بناءنا الداخلي فدب الوهن والضعف في أوصالنا، وشل قوانا وحركتنا.. ولكن لا يأس، ولا خوف علينا فالمستقبل لنا بإذن الله، لأن الله أعطىٰ ضمانات بالنصر لا يتنازل عنها ولا يخلف وعده أبداً.

كربلاء.. المدينة المنكوبة

علىٰ مرمىٰ حجر من نهر الفرات.. وعلىٰ مسافة قريبة من النجف الأشرف، كانت تقع مدينة كربلاء المقدسة وسط الواحات الخضراء، وبساتين الرمان، والبرتقال المتناثرة حولها في حزام أنيق، بدا وكأنه وشاح فضي يحيط بهذه المدينة المقدسة المنكوبة.. فهي من المدن التي تعرضت لإبادة كاملة خلال همجية الحقد اليهودي، الصليبي الجبان، الذي كان يقوده طاغية العراق السفاك المهزوم، في المعارك التي دارت بين الشعب وعصابات الحقد الأسود، وهم مجموعة من الأوباش، وقطاع الطرق الذين رماهم الإنكليز علىٰ صدر الشعب العراقي البطل، ليأخذ بثارات ثورة العشرين التي طرد الشعب فيها ـ بقيادة الفقهاء المراجع، وسواعد العشائر العراقية ـ طرد الشعب فيها جنود الإنكليز، وأوقع هزيمة نكراء في فلول الغزاة المعتدين، وترك جيش بريطانيا يلعق جراحه في نزيف من الخزي والعار..

وها هي الآن الدول التي تحمل الصليب تضافرت جهودها لتقتصّ من الشعب العراقي، وتذيق أبناءه حرّ الحديد والنار.. وبالفعل فقد ألقت القوات المتحالفة بقيادة أمريكا ما مجموعه مائة ألف طن من القنابل

والصواريخ علىٰ رؤوس الأطفال والنساء والشيوخ. . !.

أجل. . أكثر من مائة ألف طن من الحديد والنار والمتفجرات نزلت علىٰ أبناء هذا الشعب الأبيّ، وكل ذلك يحدث في مرأى ومسمع من الهيئات الإنسانية في العالم. . والذي يزيد الخطب أن أبناء العراق كانوا قد تعرضوا لمحاصرة ومقاطعة اقتصادية كاملة من قبل الدول الغربية المتحالفة علىٰ سحق الإسلام والمسلمين، حتىٰ بلغ سعر الرغيف الواحد مبلغاً خيالياً من المال. . كل هذا والشعب صامد يعاني من جراحه في صمت صبور شجاع.

وفجأة تغيرت المعادلة، وتبدّلت الموازين، وإذا بقوات التحالف الصليبية التي ضربت العراق ودمرته وأرجعته إلى القرن التاسع عشر بحجة أنها تريد رأس صدام التكريتي، أقول: وإذا بهذه القوات التي ضربت الشعب العراقي تحت غطاء إعلامي مزيَّف يقول: إن القوات تريد رأس صدام، لا رأس الشعب، وهي تقاتل ضد صدام التكريتي وليس ضد الشعب العراقي، وإنما قوات التحالف جاءت لتحرير العراق، وإنقاذ هذا الشعب المظلوم من قبضة السلطة الجائرة. .

وتحت هذا الغطاء الإعلامي كانت عشرات ألوف الأطنان من القنابل والصواريخ تدك معاقل العراق، وتحدث زلزالاً رهيباً في مدنه ونواحيه وحتىٰ قراه. . أقول: فجأة وبقدرة قادر أنقلب السحر علىٰ الساحر، . وانعكست الآية وإذا بهذه القوات المتحالفة الصليبية التي ملأت الدنيا بادعاءاتها الفارغة الكاذبة، . . إذا بها تترك صداماً وتتجه صوب المعارضة العراقية لتدفنها في التراب. !.

إنه لعجب عجاب. ولكن لا عجب من هؤلاء فإنهم لا ضمير لهم ولا ذمّة ولا دين ولا وجدان. . فهم كاليهود الذين يقول عنهم القرآن الكريم: . . ﴿**لا تتخذوا اليهود والنصارىٰ أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن**

يتولهم منكم فإنه منهم﴾[1]. وهذه قاعدة عامة يطرحها القرآن الكريم بين يدي الشعوب الواعية لتعرف حقيقة اليهود والنصارىٰ. . حقيقة الصهيونية والصليبية، وقد بدت الكلمتان بالصاد، وكأن صدام قد اختار حرف الصاد من هاتين الكلمتين: الصهيونية والصليبية ليكون في أول اسمه.

المهم. . إنهم لم يتركوا صداماً فقط يعيث فساداً في الأرض. . لكنّهم دعموه أيضاً وزودوه بالسلاح وأعطوه الضوء الأخضر ليضرب الانتفاضة، ويقتل الأطفال والنساء والشيوخ، ويحرق الشبان والحقول بأسلحة الدمار الشاملة التي يمتلكها هذا المجنون اللئيم الخبيث.

وقد انطلق هذا الجبان ينشر بأسلحته الموت والدمار في كل مدن العراق، حتىٰ لم تسلم مدينة واحدة من شره وفساده وحقده الأسود. وكان من بين المدن التي تعرضت لإبادة كاملة خلال هذه الهجمة الدموية الحاقدة. . كانت مدينة كربلاء المقدسة. . المدينة الجميلة التي تلمع في سمائها منائر وقباب أبي الأحرار، وسيد الشهداء أبي عبد الله الحسين ـ عليه السلام . . وأخيه البطل المجاهد أبي الفضل العباس، سلام الله عليه.

لقد كانت كربلاء المقدسة مدينة جميلة بحق. . تقع علىٰ مسافة قصيرة من نهر الفرات ومن مدينة المسيب التي تحتضن هذا النهر الجميل المتدفق في البراري والحقول.

أجل. . كربلاء التي فتحت جرحاً لا يندمل في قلوب الأحرار ترفع صوتها لتنادي الأحرار أينما وجدوا في هذا العالم: أيها الأحرار في كل مكان. . تحية لكم أينما حللتم ونزلتم. هنا صوت كربلاء المقدسة، هنا صوت الحق، والحرية، والعدالة والمساواة.

---

(١) سورة المائدة؛ الآية: ٥١.

علىٰ مشــارف قبـر الحسين . . تمتــد القـرىٰ والبيــوت التي تشكــل بمجموعها عاصمة الإيمان والسلام والحـرية . . مـدينة الإمـام الحسين قائـد الأحرار وعظيم العظماء، وسيد الشهداء في العالم.

ساكنوها من المؤمنين الأخيار، ومن المجاهدين الأبطال الذين حـاربوا الـظلم، ووقفوا ضـد المعتدين والغـزاة من الكفار والمشـركين، والملحدين طوال التاريخ المشرق الذي سطره أهل هذه المـدينة المقـدسة بحـروف من نور. . فها هي سماء كربلاء تحمل وهج الشيخ محمد تقي الشيرازي الـذي قاد ثورة العشرين ببسالة وشجاعة وإقدام ليس لـه نظيـر ولا مثيل في تـاريخ العـراق الأخيـر. . هـا هـو اسمـه، ونـوره لا يـزالان يحـومــان في القلوب ويجتذبان النفوس إليه. . إنه شيخ طاعن في السن. سلاحه عباءته الطاهـرة وإيمانه الضارب في الأعماق الذي لو وزنت به السموات لمـالت كفة إيمـانه وتقـواه وورعه. . ولـذلك وثق بـه أهل العـراق، واطمأنّت لـه عشـائـر دجلة والفـرات، وسارت وراءه العشـائر، والعلمـاء، وكـافـة طبقـات الشعب حتىٰ استطاع هذا البطل المجاهد أن يوقع أكبر هزيمة عرفها التاريخ تاريخ العراق الحديث والقديم ـ بجيش بريطانيا وحلفائها. . وقد ساعده علىٰ ذلك التفاف السادة العلماء، والفقهاء المراجع حوله أمثال الشيـخ الخالصي الكبيـر. . والسيد أبـو الحسن الأصفهـاني. . والمـرحـوم كـاشف الغـطاء . . والسيـد بحـر العلوم. وثلة كبيـرة من العلمـاء الذين لا أستحضـر أسماءهم الآن في هـذه اللحظات المؤثـرة التي أُحرّر فيها هـذه المقالة من أعماق نفسي الثائرة لتكون نوراً لمن يريد الخلاص من الظلام.

أقول: هذا هو تاريخ هذه المدينة الجميلة، كربلاء المقـدسة. . وهـا هم ســاكنوهـا كلُّهم من المؤمنين الأخيار، والعلمـاء الأبطال الـذين أضـاؤوا الـدنيا بعلومهم. . وهـزوا العالم ببـطولاتهم وأمجادهم وتضحيـاتهم التي لن ينساها لهم الأحرار في كل بلدٍ من بلدان العالم الحرّ الأبيّ. نعم،

ساكنوها. . علماء، حلماء، أبرار. . أتقياء. . مجاهدون، ميامين،

ساكنوها. . فلاحون، وحرفيون ومثقفون وأجاويد هم مفخرة العرب والمسلمين. تقاليدهم نابعة من صميم الإسلام. . أخلاقهم مصبوغة بلون القرآن الكريم والسنة الشريفة. . عاداتهم إسلامية، أصيلة، كلها صفاء. . ونقاوة. . حياتهم عرق وكفاح، وجهاد يومي لا يتوقف.

من أهم صفاتهم: التسامح وحفظ الجوار، والتعلق الأُسطوري بالقرآن والعترة الطاهرة. . والحفاظ علىٰ العرض والكرامة.

في يوم السبت الواقع في الثلاثين من الشهر الثالث من العام ١٩٩١ الميلادي الموافق اليوم الرابع عشر من شهر رمضان، تكاملت فصول الحلقات، وتمت طبخة المؤامرة فوق نار الحقد الدفين. . وتكاملت فصول المؤامرة علىٰ هذه المدينة الجميلة المقدسة. . المدينة الآمنة المتألقة بمرقد الحسين، وضريح أخيه العباس، عليهما السلام. أقول تكاملت المؤامرة فتقدمت عناصر من جيش الإجرام. . وهي العناصر التي يطلق عليها إسم القوات الخاصة، أو قوات الحرس الجمهوري اللعين. . تقدمت هذه العناصر إلى التلال، والبساتين المجاورة فأحاطت بها من كل مكان، وسدت منافذ الدخول، والخروج مفسحةً الطريق لعصابات اللؤم والغدر والخسّة والحقد والخيانة، لترتكب أفظع الجرائم وأشنع الأعمال وأبشع ما تصوره عقل إنساني. . تاركة وراءها بصمة الهمجية والعار علىٰ جبين التاريخ.

وحتى نعرف حجم الدمار والخراب الذي نشرته هذه العصابات في مدينة كربلاء المقدسة، يكفي أن أنقل لكم صوراً تروي لنا ما حل بهذه المدينة الجميلة.

الصورة الأُولىٰ:

علىٰ مشارف المدينة، كانت تقع هناك قرية صغيرة بريئة، براءة الأطفال اسمها حي العبّاس، وهي من الأحياء السكنية المتناثرة حول مدينة كربلاء.. هذه القرية التي نسمّيها حي العباس، سكانها لا يزيدون عن الخمسة آلاف نسمة.. جميعهم من العلماء والأساتذة والمعلمين.. والفلاحين القانعين بالإيمان. المجاهدين بالحق والسلام.. الزارعين الأرض بالغِلال، المحوّلين الصخر إلى تربة طاهرة خصبة.

لقد كان الليل طويلاً وثقيلاً عندما دخلت عساكر النذالة والإجرام هذه القرية الوادعة، مزودةً بالحقد الأسود القاتل.. فوجدوا فيها آلاف المدنيين الأبرياء، توزعوا بين شيوخ، وأطفال ونساء.. أما الشباب الأبطال فقسم منهم أُودعوا السجون والمعتقلات وقسم آخر قُتلوا أثناء الاشتباكات التي سبقت هذا الغزو البغيض، وقسم استشهد تحت تعذيب اللئام، وقسم قاوم وصمد. ولا تسل ماذا حل بهذه القرية الناضرة البريئة.

خمسة آلاف أُبيدوا عن بكرة أبيهم على أيدي قوات الخسّة والنذالة والحقد التي زرعت الأرض الطيبة المقدسة بالموت والدمار حيث تركت الجثث صرعىٰ علىٰ وجه الصعيد تنتابها العواسل، وتعرفها أمهات الفراعل.. بعد أن مثّلت بها.. وفعلت ما فعلت، فداست عفاف المحصنات (لأنهم لقطاء لم تعرفهم الآباء) وأجهزت علىٰ الفتيات الأبكار فما تركت عذراء إلّا وتركتها تنزف بدماء الشرف والعفة والكرامة، يلفها الفزع والدموع.

كان الرجل من قوات صدام اللّعين يدخل علىٰ المرأة المحصنة، والأخرى العذراء فيدوس عفتها، وينتزع كرامتها دون أن يكون هناك تكافؤ بينهم وبين المؤمنين ممّن كانوا يحامون عن الأعراض والشيوخ والأطفال حيث كانت نهايتهم الشهادة المباركة. إن صور الغدر والحديث عنها تقشعرّ لها الأبدان، لا تدانيها إلّا أحاديث وقعة الحرّة في أيام يزيد بن معاوية

اللّعين، فلقد وصلتنا أخبار تدمى لها القلوب إذ حاول بعض ساكني حيّ العباس أن ينقل جثث القتلىٰ إلى مكان آمن لإجراء مراسم الدفن، فأبادوهم ولم يسمحوا لهم بدفنها، إنهم أوغاد، أنذال، لؤماء، حاقدون، كفرة، .

لم يكن عندهم للحياة حرمة، فيكف يكون لحرمة الموت عندهم اعتبار؟!!

أجل: . . .

خمسة آلاف من الأبرياء عاشوا الإيمان حباً . .

ترجموا الحب فعل عطاء . . مع الله والرسل والأنبياء والإمام الحسين .

ترجموا الحب فعل عطاء مع الله والنبي والقرآن . . مع الأرض الطاهرة والأهل والإنسان . .

جرّحوا وجه التراب مواسم خصب، وسنابل قمح . . وبيادر عطاء .

خمسة آلاف، في صفاء الندىٰ، وطهارة الضوء . .

أتاهم الهمجيون من غابات الحقد الأسود بمناجل الموت، وحراب الفناء، وأسلحة الدمار . . وقنابل النابالم المحرقة . .

فمزقوا الإبتسامة من علىٰ وجوه الأطفال الأبرياء، .

وطعنوا بخناجرهم السامة قلوب الشيوخ والعجزة العامرة بالإيمان .

هؤلاء الفجرة، خافوا من أرحام النساء أن تنبت للمستقبل رجالاً، سلاحهم التقوى والفضيلة فمزقوا الأرحام وقتلوا الأجنة في بطون الأمهات .

ألا ساء ما فعلوا،

هؤلاء الأشرار الذين خافوا من الشيوخ أن تزرع علىٰ الصخـور مواسم الحكمة،

وبشائر النور،

تهتـدي بهـا الأجيـال. . فقتلوا الشيـوخ، ودمّـروا البيـوت. . وكسـروا الصخور.

ولكن مهلاً،

فالحياة وعُد شرفٍ للأحرار. .

وقد أعطىٰ الله سبحانه ضمانات للمحـرومين والمظلومين، والمعـذبين في الأرض. .

أعطاهم وعداً بالنصر والظفر والفلاح. .

لأن الأرض في النهاية تقع في أيدي الصالحين شاء الظالمون أم أبـوا لأن الله سبحانه يقول:

﴿ولقـد كتبنا في الـزبـور من بعـد الـذكـر أن الأرض يـرثهـا عبـادي الصالحون﴾[1].

- **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾**[2].
- **﴿إن جندنا لهم الغالبون﴾**[3].

ودائماً الحق هو المنتصر. . والباطل هو المهزوم في نهاية الشوط. .

بـل أحيـانـاً كثيـرة نجـد أن البـاطـل لا يتمكن من استكمـال شـوطـه وانطلاقته، فيتعثر في أول الطريق ويسحقه الحق بأقدامه.

---

(١) سورة الأنبياء؛ الآية: ١٠٥.

(٢) سورة المجادلة؛ الآية: ٢١.

(٣) سورة الصافات؛ الآية: ١٧٣.

والآن:

يا كربلاء..

يا مدينة الحسين..

يا سيدة المدن في العراق.

غداً أو بعد غد.

حين يمضي الفجرة وسيتلاشىٰ الظل، وتموت الأشياء في العتمة.

حين ينتصر الشعب ويحقّ الحق.. ويهزم الطغاة بالباطل..

ستبقين أنتِ يا كربلاء المقدسة..

يا كبيرة القلب،

يا صغيرة المساحة.

ستبقين أنتِ نقيةً كحبات الندىٰ.. ودمعات المطر..

طاهرة كالشمس.

كالضوء، كالنور..

مقدسة كوجه عرش الربّ..

وسيبقى صراخك مشرّعاً في السماء كطفلةٍ جريحة، سقطت من قافلة الأحبة..

وستظلّين الشاهدة علىٰ وحشية الغدر الآتي من عصر الكهوف الصليبية،

من عصر محاكم التفتيش.

يا كربلاء..

يا طفلة القرىٰ، وأم المدن العراقية المقدسة. .

سيغنيك الآتون لزيارتك ببيارق النصر. . وأعلام الحرية. .

سينشدك المؤمنون بالحب، والبراءة والطفولة.

آه يا كربلاء. .

آه يا طفلة قتلوها، وبقيت خصلات شعرها معقودة ما بين الريح. .

والصخر. . والتراب.

سلام عليكِ يا كربلاء.

يا مدينة الطهر والإيمان.

وسلام على ما فيكِ من بشرٍ وشجرٍ وحجرٍ وماء وتراب.

ودمعة حارّة أذرفها وأمزجها بدماء شهدائك الغرّ الميامين.

وإلى أن نلتقي. .

قبلة من الأعماق على جباه أبطالك الصامدين.

وأخيراً، وليس آخراً. . باقات وردٍ وياسمين. . . . وعذراً.

وإلىٰ هنا، ولا زالت الصور تتلاحم أمام عينيّ تشكل سحابة رمادية من الحزن والألم والدموع. . فهذه صورة تنزف دماً ودمعاً، تحكي مأساة ومعاناة وجراح المدينة المقدسة. . مدينة العلم والفداء. . مدينة النجف الأشرف التي تركها الطغاة غارقة في بركة من الدماء ولكنَّ أبناءها البررة المجاهدين الذين اندفعوا في وجه الطاغية كالإعصار العاتي ما تركوها هكذا إلاّ بعد أن أوقعوا أكبر هزيمة في صفوف الطاغية، والذين كانوا هناك يحكون قصصاً تجري من مآقيها الدموع، أرجو أن يكون لي شرف، القلم لأُسجلها في كتاب مستقل عن المدن البطلة التي قامت بوجه الطغاة:

النجف الأشرف، وكربلاء المقدسة، الكاظمية المشرّفة، وسامراء الطيّبة، وكل من البصرة المجاهدة التي أرسلت رسالة إلى الثوار تحمل عطشها ودموع أطفالها الصغار الذين وقفوا على قارعة الطريق يبحث الواحد منهم عن الرحمة والأمن فلا يجدون لهما أثراً.

ونفس الشيء يقال في مدن الفرات الأوسط من الحلّة ـ الفيحاء والهندية والديوانية والحمزة والرميثة المدينة، التي أطلقت ثورة العشرين.. ومدينة السماوة التي أقضّت عروش الظالمين.. وصور.. وصور يعجز البيان عن رسمها.. ويصمت اللسان عن نقلها لأنها أكبر وأوسع مساحة من مساحة القلم والبيان.

قصيدة الشيخ حسن قفطان

هيهاتَ أنْ تجفو السهادَ جفوني أو أنَّ داعيةَ الأسى تجفوني
أنّى ويومُ الطفِّ أضرمَ في الحشا جذواتِ وجدٍ منْ لظى سجّينِ
يومٌ أبو الفضل آستفزّتْ بأسَهُ فتياتُ فاطمَ من بني ياسينِ
في خيرِ أنصارٍ براهمْ ربّهمْ للدينِ أوّلَ عالمِ التكوينِ
فرقى على نهدِ الجزارةِ هيكلٍ أنجبنَ فيهِ نتائجَ الميمونِ
متقلداً عَضباً كأنَّ فرندهُ نقشُ الأراقمِ في خطوطِ بطونِ
حتى إذا قطعوا عليهِ طريقَهُ بسدادِ جيشٍ بارزٍ وكمينِ
فثنى مكرَ دَسها نواكصَ وآنثنى بنفوسها سلباً قريرَ عيونِ
ودعتهُ أسرارُ القضا لشهادةٍ رُسمتْ لَهُ في لوحِها المكنونِ
حسموا يديهِ وهامَهُ ضربوهُ في عمدِ الحديدِ فخرَّ خيرَ طعينِ
ومشى إليهِ السبطُ ينعاهُ كسـ ـرتَ الآنَ ظهري يا أخي ومعيني
عباسُ كبشَ كتيبتي وكنانتي وسريَّ قومي بلْ أعزَّ حصوني
يا ساعدي في كلِّ معتركٍ بهِ أسطو وسيفُ حمايتي بيميني
لمنِ اللّوا أُعطي ومَنْ هوَّ جامعٌ شملي وفي ضَنكِ الزُحامِ يَقيني
أمنازلَ الأقرانِ حاملَ رايتي ورواقَ أخبيتي وبابَ شؤوني

لكَ موقفٌ بالطفِّ أنسىٰ أهلَهُ حربَ العراقِ بملتقىٰ صفّينِ
أولستَ تسمعُ زينباً تدعوكَ من لي ياحمايَّ إذا العدىٰ نهروني
أولستَ تسمعُ ما تقولُ سكينةٌ عماهُ يومَ الأسرِ مَنْ يحميني
كانَ الرجا بكَ أنْ تحلَّ وثاقهمْ لي بالحبالِ المؤلماتِ متوني
وتجيرُني في اليتم مِن ضيمِ العِدىٰ واليومَ خابت من رجاكَ ظنوني
عماهُ إن أدنو لجسمِكَ أبتغي تقبيلَهُ بسياطهم ضربوني
عماهُ ما صبري وأنتَ مجدّلٌ عارٍ بلا غسلٍ ولا تكفينِ
مَنْ مبلغٌ أمَّ البنينَ رسالةً عن والهٍ بشجائِهِ مرهونِ
لا تسألُ الركبانَ عن أبنائِها في كربلاءَ وهمْ أعزُّ بنينِ
تأتي لأرضِ الطفِّ تنظرُ ولدَها ثاوينَ بين مبضعٍ وطعينِ

قصيدة الشيخ محمد علي اليعقوبي

دعـانـي فـلبّـيـتُـهُ مـذْ دعـا　　هـوىً أودعَ الـقـلبَ مـا أودعـا
ومـا زلتُ أعصي دواعي الغرام　　ولـولاكـمُ لـمْ أُجـبْ طـيّـعـا
إذا القلبُ فيكمْ جـوىً لا يـذوبُ　　فـقـدْ كـذَّبَ الـقـلبُ فـيـمـا آدعـا
بكيتُ علىٰ ربعِكـمْ قـاحـلاً　　فـأخصبَ من أدمعي ممـرعـا
فـلا النومُ خـالطَ لي نـاظـراً　　ولا الـلومُ قـدْ خـاضَ لي مسمعـا
جـزعتُ ولولا الـذي قدْ أصـابَ　　بني الـوحي مـا كـدتُ أن أجـزعـا
غـداةَ أبو الفضـلِ لفَّ الصفوفَ　　وفـلَّ الـظُّبـا والـقـنـا شـرعـا
فتىً ذكّـر الـقـومَ مـذْ راعَهـمْ　　أبـاهُ الـفـتـىٰ الـبـطلَ الأنـزعـا
إذا ركـعَ الـسيـفُ في كـفّـهِ　　هـوتْ هـامـهـمْ سُـجّـداً ركّـعـا
وحـولَ الشريعةِ تحمي الفراتَ　　جـمـوعُ أبىٰ الـبـغـيُ أن تـجـمـعـا
وآبَ ولـمْ يـرومـن شـربـةٍ　　وجـرّعـهُ الـمـوتُ مـا جـرّعـا
فـخـرَّ إلى ضـفـةِ الـعـلقـمي　　صـريـعـاً فـأعـظم بـهِ مصرعـا
فمـا كـانَ أشجىٰ لقلبِ الحسينِ　　وآلـمَ مـنـهُ ولا أوجـعـا
رأىٰ دمَـهُ لـلقَـنـا مـنـهـلاً　　وأوصـالَـهُ لـلظُبـا مـرتـعـا
قـطيـعَ اليمينِ عفيـرَ الجبينِ　　تـشـقُّ الـنـصـال لَـهُ مـضـجـعـا

أبــدرَ الــعشيــرةِ من هــاشـمٍ أفــلـتَ وهــيــهــاتَ أن تــطلعــا
فقــدتــكَ يــا ابنَ أبي واحــداً ثَــكـلـتُ بــهِ مــضــراً أجــمــعــا
لقــد هجعتْ أعينُ الشــامتينَ وأخــرى لــفـقــدكَ لــن تــهــجــعــا
أســاقي العطاشىٰ لقــد كضّهـا الــظَما فــآستقتْ بعــدَكَ الأدمــعــا
حميتَ الضـعينــةَ من يشــرب وأنــزلــتهــا الــجــانِــبَ الأمــنــعــا
وإنْ أنسَ لا أنسَ أمَّ الــبــنــيــنِ وقــد فــقــدُت ولــدَهــا أجــمــعــا
تنــوحُ عليهمْ بــوادي البقيــعِ فــيُــذري الــطريــدُ لــهــا الأدمــعــا
ولم تَسلو مَنْ فـقــدتْ واحــداً فــكــيــفَ بِــمَــنْ فــقــدتْ أربــعــا

قصيدة الشيخ محسن أبو الحب

إذا كانَ ساقي الحوض في الحشرِ حيدرٌ   فساقي عُطاشىٰ كربلاءِ أبو الفضلِ
علىٰ أنَّ ساقي الحوضِ في الحشرِ قلبُهُ   مريءٌ وهذا بالظما قلبُهُ يَغلي
وقفتُ على ماءِ الفراتِ ولم أزلْ   أقولُ لهُ والقولُ يُحسنهُ مثلي
علامَكَ تجري لا جريتَ لواردٍ   وأدركتَ يوماً بعض عاركَ بالغسلِ
أما نشفتْ أكبادُ آلِ محمدٍ   لهيباً ولا ابتلّتْ بعَلٍّ ولا نهلِ
من الحقِّ أن تذوي غصونُكَ ذبّلاً   أسىً وحياءً من شفاههُم الذبلِ
فقالَ استمعْ للقولِ إن كنتَ سامعاً   وكنْ قابلاً عذري ولا تُكثرنْ عذلي
ألا إنَّ ذا دمعي الذي أنتَ ناظرٌ   غداةَ جعلتُ النوحَ بعدَهمُ شغلي
برغمي أرىٰ مائي يلذُّ سواهمُ   بهِ وهمُ صَرعىٰ على عطشٍ حولي
جزىٰ اللّٰهُ عنهمْ في المواساةِ عمَّهمْ   أبا الفضلِ خيراً لو شهدتَ أبا الفضلِ

(*) الشيخ محسن أبو الحب الكبير أشهر خطيب في كربلاء ولد سنة ١٢٣٥ هـ وتوفي سنة ١٣٠٥ هـ وترجمه السيد الأمين في الأعيان وشبَّر في أدب الطف ج ٨ ص ٥٤ ومن قصيدة له البيت الشهير الذي يتردد على الألسن:

إن كان دين محمد لم يستقم   إلا بقتلي يا سيوف خذيني

والقصيدة كما ذكرها السيد سلمان آل طعمة في تراث كربلاء: =

لقد كانَ سيفاً صاغَهُ بيمينهِ ... عليٌّ فلمْ يحتجْ شباهُ إلى الصقلِ
يميناً بيمناك القطيعةِ والتي ... تسمَّىٰ شمالاً وهي جامعةُ الشملِ
بصبركَ دونَ ابنِ النبيِّ بكربلا ... على الهولِ أمرٌ لا يُحيطُ بهِ عقلي
ووافاكَ لا يدري أفقدُكَ راعَهُ ... أمِ العرشُ غالَتْهُ المقاديرُ بالثلِّ
أخي كنتَ لي درعاً ونَصلاً كلاهما ... فقدتُ فلا درعي لديَّ ولا نصلي

إن كنت عاتبة علي دعيني ... ما كان لومك بالهوى يغريني
أعطيت ربي موثقاً لا ينتهي ... إلا بقتلي فاصعدي وذريني
إن كان دين محمد لم يستقم ... إلا بقتلي يا سيوف خذيني
هذا دمي فلترو صادية الظبا ... منه وهذا بالمراح وتيني
هذا الذي ملكت يميني حبسه ... ولا تبعته يسرتي ويميني
خذها إليك هدية ترضىٰ بها ... يا رب أنت وليها من دوني
أنفقتُ نفسي في رضاك ولا أرا ... ني فاعلاً شيئاً وأنت معيني
ما كان قربان الخليل نظير ما ... قربته كلا ولا ذي النون
هذي رجالي في رضاك ذبائح ... ما بين منحور وبين طعين
رأسي وأروس أسرتي مع نسوتي ... تهدى لرجس في الضلال مبين
وإليك أشكو خالقي من عصبة ... جهلوا مقامي بعدما عرفوني

قصيدة الشيخ حسون الحلي

لو كنتَ تعلمُ ما في القلبِ من شجنِ ... ما ذاقَ طرفُكَ يوماً طيّبَ الوسنِ
ولو رأيتَ غداةَ البينِ وقفتنا ... أسلتَ قلبكَ دمعاً كالحيا الهتنِ
ناديتُ مَنْ طوّحَ الحادي بضعنهمُ ... وراحَ يطوي فيافي الأرضِ بالبُدُنِ
يا راحلينَ بصبري والفؤادِ معاً ... رفقاً بقلبِ محبٍّ ناحلِ البدَنِ
أُخفي محبّتكمْ كي لا ينمَّ بنا ... واشٍ ولكنَّ دمعَ العينِ يفضحني
دعْ عنكَ يا سعدُ ذكرَ الغانياتِ ودعْ ... عنكَ البكاءَ على الأطلالِ والدمنِ
واسمعْ بخطبٍ جرىٰ في كربلاءَ علىٰ ... آلِ النبيِّ ونُحْ في السرِّ والعَلَنِ
يومٌ بهِ المصطفىٰ باتتْ حشاشتُهُ ... حرّىٰ ولم ترقَ عيني من أبي حسنِ
لم أنسَ ناصرَ دينِ الله منفرداً ... وفيهِ أحدقَ أهلُ الشركِ والأحنِ
يرنو إلى الصَحبِ فوق التربِ تحسبُها ... بدورَ تمٍّ بدتْ في الحالِك الدُجنِ
لهفي لهُ مذْ رأىٰ العباسَ منجدلاً ... فوقَ الصعيدِ سليباً عافرَ البدنِ
نادىٰ بصوتٍ يذيبُ الصخرَ يا عضُدي ... ويا معيني ويا كهفي ومؤتمني

عباسُ قدْ كنتَ لي عضباً أصولُ بهِ وكنتَ لي جُنةً من أمنعِ الجننِ
عباسُ هذي جيوشُ الكفرِ قدْ زحفتْ نحوي بشاراتِ يومِ الفتحِ تطلبني
كسرتَ ظهري وقلّتْ حيلتي وبما قاسيتُ سُرّتْ ذوو الأحقادِ والضغنِ
بقيتُ بعدكَ بينَ القومِ منفرداً أُقلِّبُ الطرفَ لا حامٍ فيُسعدني

قصيدة الحاج محمد رضا الأزري

أوما أتاكَ حديثُ وقعةِ كربلا | أنّى وقد بلغَ السماءَ قتامُها
يومٌ أبو الفضلِ آستجارَ بهِ الهدىٰ | والشمسُ من كدرِ العجاجِ لِثامها
والبيضُ فوقَ البيضِ تحسبُ وقعَها | زجلَ الرعودِ إذا اكفهرَّ غمامُها
فحمىٰ عرينتَهُ ودمدمَ دونَها | ويذبُّ من دونِ الشَّرىٰ ضرغامُها(١)
من باسلٍ يلقىٰ الكتيبةَ باسماً | والشوسُ يرشحُ بالمنيةِ هامُها
وأشمَّ لا يحتلُّ دارَ هضيمةٍ | أويستقلُّ على النجوم رغامُها
أولم تكنْ تدري قريشٌ أنَّهُ | طلاّعُ كلِّ ثنيَّةٍ مِقدامها
بطلٌ أطلَّ على العراقِ مجلّياً | فأعصوصبتْ فرقاً تمورُ شئآمها
وشأىَ الكرامَ فلا ترىٰ من أمةٍ | للفخرِ إلاّ ابنُ الوصيِّ إمامُها
هوَّ ذاكَ مؤلُها يرىٰ وزعيمُها | لوجلَّ حادثُها ولدَّ خِصامها

(*) الشيخ محمد رضا الأزري هو أخ الشيخ كاظم صاحب الهائية التي يتمنى الشيخ صاحب الجواهر أن تكون في سجل أعماله ويكون الجواهر مكانها في سجل الأزري. ولد شاعرنا في بغداد سنة ١١٦٢ هـ وتوفي فيها سنة ١٢٤٠ هـ وكان شاعراً عبقرياً أهم أشعاره في أهل البيت له ديوان يشتمل على ألف وخمسمائة بيت من الشعر. (من لا يحضره الخطيب ج ١ ص ٢٩٧).

وأشدُّها بأساً وأرجُحها حِجىً ... لو ناصَ موكبُها وزاغَ قوامُها
من مقدم ضربَ الجبالَ بمثلِها ... من عزمهِ فتزلزلتْ أعلامُها
ولَكمْ لَهُ من غضبةٍ مضريَّةٍ ... قد كادَ يلحقُ بالسحابِ ضرامُها
ثمَّ آنبرىٰ نحوَ الفراتِ ودونَهُ ... حلباتُ عاديةٍ يصلُّ لجامُها
فهُنالِكمْ ملكَ الشريعةَ وآتكىٰ ... من فوقِ قائمِ سيفهِ فمقامُها
فأبتْ نقيبتُهُ الزكيةُ ريَّها ... وحشىٰ آبنِ فاطمةٍ يشبُّ ضرامها
حتىٰ إذا وافىٰ المخيَّم جلجلتْ ... سوداءَ قدْ ملأ الفضا أرزامُها
ومذْ استطالَ إليهمُ متطلعاً ... كالأيمِ يقذفُ بالشواظِ سمامها
حسمتْ يديهِ يدُ القضاءِ بمبرمٍ ... ويدُ القضا لم ينتقض إبرامها
وآعتاقَهُ شركُ الردىٰ دونَ الشرىٰ ... إنَّ المنايا لا تطيشُ سهامُها
الله أكبرُ أيُّ بدرٍ خرَّ مِنْ ... أُفقِ الهدايةِ فآستشاطَ ظُلامها
فمنَ المعزي السبطَ سبطَ محمدٍ ... بفتىً لهُ الأشرافُ طأطأَ هامها
تاللهِ لا أنسىٰ آبنَ فاطمَ إذْ جلا ... عنهُ العجاجةَ يكفهرُّ قتامها
من بعدِ أنْ حطمَ الوشيجُ وثُلّمتْ ... بيضُ الصفاحِ ونُكّستْ أعلامُها
وافىٰ بهِ نحوَ المخيمِ حاملاً ... من شاهقي علياءَ عزَّ مرامها
وهوىٰ عليهِ ما هنالكَ قائلاً ... اليومَ بانَ عن اليمينِ حُسامها
اليومَ نامتْ أعينٌ بكَ لم تنمْ ... وتسهدتْ أخرىٰ فعزَّ منامها
أشقيقَ روحي هلْ تراكَ علمتَ إذْ ... غودرتَ وانثالتْ عليكَ لئامها
إنْ خلتُ أُطبقتِ السماءُ علىٰ الثرىٰ ... أو دكدكتْ فوقَ الرُّبىٰ أعلامها
لكن أهانَ الخطبَ عندي أنني ... بكَ لاحقٌ أمراً قضىٰ علاّمها

---

(١) الشرى: مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل فيقال هو كأسد الشرى والضرغام الأسد.

رثاء في أبي الفضل العباس
عليه السلام

حتىٰ إذا اشتبك النزال وصرحت

صيد الرجال بما تكن وتكتم

وقع العذاب علىٰ جيوش أُمية

من باسل هو في الوقائع معلم

ما راعهم إلا تقحم ضيغم

غيران يعجم لفظه ويدمدم

عبست وجوه القوم خوف الموت

والعباس فيهم ضاحك متبسم

قلب اليمين على الشمال وغاص في الأوساط

يحصد في الرؤوس ويحطم

وثنىٰ أبو الفضل الفوارس نكصاً

فرأوا أشد ثباتهم أن يهزموا

صبغ الخيول برمحه حتى غدا
سيّان أشقر لونها والأدهم
ما شدّ غضباناً على ملمومةٍ
إلاّ وحلّ بها البلاء المبرمُ
بطل تورث من أبيه شجاعة
فيها أنوف بني الضلالة ترغم

شعر في أبي الفضل عليه السلام

عـرف الـمـواعظ لا تـفـيـد بـمـعـشـر
صـمـوا عن الـنبـأ تـاعـظيم كمـا عـمـوا
حـامي الضـغينـة أين منـه ربيعـة
أم أيـن من عـليـا أبـيٍ مـكـرم
فـي كـفـه الـيـسـرىٰ الـسـقـاء يـقـلـه
وبـكـفـه الـيـمـنىٰ الـحـسـام المـخـذم
وهـوىٰ بـجـنـب الـعـلـقـمـي فـليـتـه
لـلشـاربـيـن بـه يـداف الـعـلـقـم
فـمشىٰ لمـصـرعـه الـحسـين وطـرفـه
بـيـن الـخـيـام وبـيـنـة مـتـقـسـم
ألـفـاه محـجـوب الـجـمـال كـأنـه
بـدر بـمـنـحـطم الـوشـيـج مـلـثم
فـأكـب مـنـحـنـيـاً عـليـه ودمـعـه
صـبـغ الـبـسيط كـأنـمـا هـو عـنـدم
نـادىٰ وقـد مـلأ الـبـوادي صـيـحـة
صـم الـصـخـور لـهـولـهـا تـتـألـم

أأخي يهنيك النعيم ولم أخل
ترضىٰ بأن أُرزىٰ وأنت منعم
أأخي من يحمي بنات محمد
إن صرن يسترحمن من لا يرحم
ما خلت بعدك أن تشل سواعدي
وتكف باصرتي وظهري يقسم
لسواك يلطم بالأكف وهذه
بيض الظبا لك في جبيني تلطم
ما بين مصرعك الفظيع ومصرعي
إلّا كما أدعوك قبل وتنعم
هذا حسامك من يذب به العدىٰ
ولواك هذا من به يتقدم
هوّنت يا ابن أبي مصارع فتيتي
والجرح يسكنه الذي هو آلم
يا مالكاً صدر الشريعة إنني
لقليل عمري في بكاك متمم

شعر في أبي الفضل

أبــوه حــيـدرة مــن قــبــل عــلـمــه
ضــرب الشجاعــة مــذ شبت معــاطفــه
إن لــم يــزده معـنىً في شـجـاعـتـه
عــلىٰ أبــيــه فــقــد زادت مــواقــفــه
فــمــوقــف الــطف لا بــدر ولا أُحــد
ولا حــنــيــن إذا عــدت تــنــاصــفــه
ســل الشــريعــة عنــه يــوم خــاض بهــا
هــل ذاق لـلمــاء طـعـمــاً وهــو غــارفــه
رمــىٰ الــمــعــيــن بنــهــر مــن أنــامــله
وصــدعــنــه ومــا بــلت مــراشــفــه

من قصيدة في أبي الفضل العباس عليه السلام

نماه الكرامُ الصيدُ من آلِ هاشمٍ　　وهم خيرُ خلقِ اللهِ في الفرعِ والأصلِ
وهم في سماءِ الحُسنِ أقمارُ تَمِّها　　وذا قمرُ الأقمارِ معنىً على شكلِ

* * *

تفوقُ يداهُ وابلَ القطرِ في الندى　　وأين لدى جدواهُ منهمِرُ الوَبلِ

* * *

يراه أُباةُ الضيمِ أُمثولةً لهم　　فقد كان لا يُغضي على الضيمِ والذُلِّ

* * *

شجاعٌ كميٌّ باسلٌ فارسٌ فتىً　　ويفعلُ بالأبطالِ كالأُسدِ بالثُّعلِ
فوالدُهُ الكرّارُ والعَمُّ جعفرٌ　　ومثلهما العبّاسُ في القولِ والفعلِ

* * *

مكارِمُهُ فوقَ البيانِ بيانُها　　وكُلُّ الذي قد قِيلَ جزءٌ من الكُلِّ

* * *

أبَـى أن يذوقَ الماءَ والسـبطُ ظامىءٌ وأطفالُهُ عطشى إلى العَلِّ والـنَّهـلِ

مع التحية عبد العزيز العندليب

محرم الحرام ١٤١١ هـ

وهذه قصيدة للشاعر الكبير الأستاذ عبد العزيز العندليب قالها في رثاء أبي الفضل العباس ـ عليه السلام :

وهي قصيدة مؤثرة لأنها تتحدث عن لسان الحسين ـ عليه السلام ـ حين وقف على مصرع أخيه أبي الفضل.

* * *

لطميَّة في أبي الفضل العباس عليه السلام : ـ

يـا سـاقِـيَ الـظِّمَـاءِ أخـي يَـا أبـا الفـضـلْ
يـا حـامِـلَ الـلواءِ أخي يَا أبا الفضلْ...

* * *

يـا حـافِظَ الـودادِ قـد قـطعَ الأعـادي
يَـدَيْـكَ عـن شِـقَـاءِ أخي يَا أبا الفضلْ...

* * *

يـا بَـطَلَ الـطفـوفِ وهـازِمَ الـصـفـوفِ
وقـاصِـمَ الأعـداءِ أخي يـا أبـا الفضلْ...

* * *

يـا قـمـرَ الـعـشيـرَه ونـافِـذَ الـبـصـيـرَه
ذا الـبـذلِ والـوفـاءِ أخي يـا أبـا الفضلْ...

* * *

يـا فـارسَ الـفُـرسَـانِ وهَـازِمَـا الأقـرانِ
بـسـاحـةِ الـهـيـجـاءِ أخي يـا أبـا الفضلْ...

* * *

قـد كـنت نـورَ عـيـنـي يـا نـاصـرَ الـحـسـينِ
بـالـصـدقِ والـصـفـاءِ أخي يـا أبا الفضلْ...

* * *

لـقـد كسـرتَ ظـهـري بـفَـقـدِك الأَمَـرِّ
فـالـكُـلُّ فـي عـزاءِ أخي يـا أَبـا الفضلْ...

* * *

وأَسَـفـي عَـلَـيـكـا إذ قـطـعـوا يَـدَيْـكـا
بـالـغَـدرِ والـجَـفَـاءِ أخـي يـا أَبـا الفضلْ...

* * *

يـا بَـطَلَ الأبـطالِ وواحـدَ الـرجـالِ
يـا رجُـلَ الـفِـدَاءِ أخـي يا أبـا الفضلْ...

* * *

أَبـقـيـتَـنـي وحـيـداً يـا مَـن غَـدا شـهـيـداً
ظَـمـآً بِـقُـربِ الـمـاءِ أخي يـا أبـا الفضـلْ...

عبد العزيز العندليب

الكويت / ١٤٠٩ هجري

زيارة العباس عليه السلام

وفي زيارة أبي الفضل العباس عليه السلام ـ تظهر مواصفاته واضحة كالشمس يقول في الزيارة: أشهد أنك لم تهن ولم تنكُل لأن العقيدة القوية الصلبة هي ضد الوهن والذل والنكال. ولذلك كانت شخصية أبي الفضل العباس، انعكاساً للحق، والعدالة والحرية، بصدق وإخلاص وإيمان.

كما أنه ورد في الزيارة: «لعن الله أمة استحلت منك المحارم، وانتهكت في قتلك حرمة الإسلام. ـ» وحرمة الإسلام لا تنتهك بقتل أي مسلم مهما كان عظيماً، ومهما كان أنحره في الإسلام مشكوراً ـ وإنما تنتهك الحرمة بقتل العالم لأن العالم إذا مات ثلم في الدين ثلمة لا يسدها شيء. وأبو الفضل العباس كان من كبار العلماء في الإسلام، من الذين تخرجوا من جامعة الإمام علي ـ عليه السلام .

أصل الفكرة أن الزيارة ـ زيارة الحسين وأهل البيت عليهم السلام ـ تحفظ الجانب الإنساني في الإنسان وتعمق الإيمان في قلبه.. فمثلاً، حين يعطل الإنسان وظائف أعضائه: قلبه.. بصره.. سمعه فإنه يكون أقل منزلة من البهائم: «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً الخ..» ولأنهم لم يفكروا بعقولهم، ولم يسمعوا بآذانهم، ولم يبصروا بأعينهم، فكانت نتيجة عملهم هذا أنهم في

النار خالـدون ـ ومعنىٰ الآية واضـح أي أنهم لم يفكروا في المستقبـل، ولـم يفكروا بما ستؤدي هـذه الأعمال الـخ . . ثم لم يصغوا أسمـاعهم أي أنهم لم ينتفعوا بالنصائح . . ولـم يبصروا سوء العـاقبة، أو لم يبصـروا بما وقـع علىٰ غيرهم من البلاء، بالإضافة إلىٰ أنهم لم ينتفعوا بـأسماعهم. كمـا قال أهـل النار: لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير.

أقول: لأن هذا هو السبب في دمارهم وتمزقهم . .

فإذا عرفنا السبب، أدركنا كم هي زيارة الحسين عميقة التربية وعظيمة المنفعة للناس وكيف تربيهم هذه الزيارة وتجعلهم في جادة السعادة.

ففي الزيارة نقرأ العبارة التالية:

«لبيـك داعي الله إن كان لم يجبـك بدني عنـد استغاثتك ولساني عنـد استنصارك، فقد أجابك قلبي، وسمعي وبصري».

ولاحـظوا الدقـة في التعبير، فهـذه هي منافـذ العلم، وطرق الـوعي، والرشد. والإيمان. .

وحين تنغلق فـإنه يستحيـل علىٰ الإنسان أن يـرىٰ نـور الحق، وضيـاء الإيمان.

ولذلك نجد قوم نوح حين أغلقوها، أدىٰ إغلاقها إلىٰ هجوم الـطوفان عليهم.

في حين نجـد في زيارة الحسين، التـركيز علىٰ فتـح هـذه القنـوات، والتركيز علىٰ أن تكون مفتوحة، ومهيأة دائماً للتلقي، أي أنها تتلقىٰ المعين وتصبه في هذه الأرض الطيبة والتي هي نفس المؤمن الخ.

ومن هـذا المنـطلق كـانت زيـارة أبي الفضـل العبـاس ـ عليه السلام ـ مهمـة ومرغوبة بحد ذاتها لأنها مدرسة كبيرة في التربية والجهاد والحرية.

وتعـالوا معي لنقـرأ زيارة أبي الفضـل العباس كمـا جاءت في مفـاتيح الجنان بخشوع وإيمان ووعي.

في زيارة العباس بن علي بن أبي طالب عليهم السلام

روى الشيخ الأجلّ جعفر بن قولويه القمّي بسند معتبر عن أبي حمزة الثمالي عن الصادق عليه السلام قال: إذا أردت زيارة قبر العبّاس بن عليّ وهو على شط الفرات بحذاءِ الحائر فقف على باب السقيفة (الروضة) وقُلْ:

سَلامُ اللّه وَسَلامُ مَلائِكَتِهِ المُقَرَّبِينَ وَأَنْبِيائِهِ المُرْسَلِينَ وَعِبادِهِ الصّالِحِينَ وَجَمِيعِ الشُّهداءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالزّاكِياتُ الطَّيِّباتُ فِيما تَغْتَدِي وَتَرُوحُ عَلَيْكَ يَا بن أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ أَشْهَدُ لَكَ بِالتَّسْلِيمِ وَالتَّصْدِيقِ وَالوَفاءِ وَالنَّصِيحَةِ لِخَلَفِ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللّه عَلَيْه وَآلِهِ المُرْسَلِ وَالسِّبْطِ المُنْتَجَبِ وَالدَّلِيلِ العالِمِ وَالوَصِيِّ المُبَلِّغِ وَالمَظْلُومِ المُهْتَضَمِ فَجَزاكَ اللّه عَنْ رَسُولِهِ وَعَنْ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَعَنِ الحَسَنِ[1] وَالحُسَيْنِ صَلَواتُ اللّه عَلَيْهِمْ أَفْضَلَ الجَزاءِ بِما صَبَرْتَ وَاحْتَسَبْتَ وَأَعَنْتَ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدّارِ لَعَنَ اللّه مَنْ قَتَلَكَ وَلَعَنَ اللّه مَنْ جَهِلَ حَقَّكَ وَاسْتَخَفَّ بِحُرْمَتِكَ وَلَعَنَ اللّه مَنْ حالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ماءِ الفُراتِ أَشْهَدُ أَنَّكَ قُتِلْتَ مَظْلُوماً وَأَنَّ اللّه مُنْجِزٌ لَكُمْ ما وَعَدَكُمْ جِئْتُكَ يا بْنَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وافِداً إِلَيْكُمْ وَقَلْبِي مُسَلِّمٌ لَكُمْ وَتابِعٌ وَأَنا لَكُمْ تابِعٌ وَنُصْرَتِي لَكُمْ

---

(١) وفي مصباح الشيخ: وَعَنْ فاطِمَةَ وَالحَسَنِ وَالحُسَيْنِ.

مُعَدَّةٌ حَتّىٰ يَحْكُمَ اللّٰهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ فَمَعَكُمْ مَعَكُمْ لا مَعَ عَدُوِّكُمْ إِنّي بِكُمْ وَبِإِيابِكُمْ(١) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَبِمَنْ خالَفَكُمْ وَقَتَلَكُمْ مِنَ الكافِرِينَ قَتَلَ اللّٰه أُمَّةً قَتَلَتْكُمْ بِالأَيْدِي وَالأَلْسُنِ.

ثم ادخل فانكبّ على القبر وقل: السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الْعَبْدُ الصّالِحُ الْمُطِيعُ للّٰه ولرسوله وَلأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَالحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ صَلَّى اللّٰه عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللّٰه وَبَرَكاتُهُ وَمَغْفِرَتُهُ وَرِضْوانُهُ وَعَلىٰ رُوحِكَ وَبَدَنِكَ أَشْهَدُ وَأُشْهِدُ اللّٰه أَنَّكَ مَضَيْتَ عَلىٰ ما مَضىٰ بِهِ البَدْرِيُّونَ وَالمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله المُناصِحُونَ لَه فِي جِهادِ أَعْدائِهِ المُبالِغُونَ فِي نُصْرَةِ أَوْلِيائِهِ الذّابُّونَ عَنْ أَحِبّائِهِ فَجَزاكَ اللّٰه أَفْضَلَ الجَزاءِ وَأَكْثَرَ الجَزاءِ وَأَوْفَرَ الجَزاءِ وَأَوْفَى جَزاءِ أَحَدٍ مِمَّنْ وَفىٰ بِبَيْعَتِهِ وَاسْتَجابَ لَهُ دَعْوَتَهُ وَأَطاعَ وُلاةَ أَمْرِهِ أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بالَغْتَ فِي النَّصِيحَةِ وَأَعْطَيْتَ غايَةَ المَجْهُودِ فَبَعَثَكَ اللّٰه فِي الشُّهَداءِ وَجَعَلَ رُوحَكَ مَعَ أَرْواحِ السُّعَداءِ وَأَعْطاكَ مِنْ جِنانِهِ أَفْسَحَها مَنْزِلاً وَأَفْضَلَها غُرَفاً وَرَفَعَ ذِكْرَكَ فِي عِلِّيِّينَ(٢) وَحَشَرَكَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً أَشْهَدُ أَنَّكَ لَمْ تَهِنْ وَلَمْ تَنْكُلْ وَأَنَّكَ مَضَيْتَ عَلىٰ بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِكَ مُقْتَدِياً بِالصّالِحِينَ وَمُتَّبِعاً لِلنَّبِيِّينَ فَجَمَعَ اللّٰه بَيْنَنا وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ رَسُولِهِ وَأَوْلِيائِهِ فِي مَنازِلِ المُخْبِتِينَ فَإِنَّهُ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ. أقول: من المستحسن أن يزار بهذه الزيارة خلف القبر مستقبل القبلة كما قال الشيخ في التهذيب.

ثم ادخل فانكب على القبر وقل وأنت مستقبل القبلة: السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها العَبْدُ الصّالِحُ. واعلم أيضاً أنّ إلى هنا تنتهي زيارة العبّاس على الرواية السالفة ولكن السيّد ابن طاووس والشيخ المفيد وغيرهما ذيّلوها قائلين: ثم

---

(١) وبآبائكم.

(٢) فِي العالَمِينَ.

انحرف إلى عند الرأس فصلّ ركعتين ثم صلّ بعدهما ما بدا لك وادع الله كثيراً وقل عقيب الركعات:

اللّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَلا تَدَعْ لِي فِي هَذا المَكانِ المُكَرَّمِ وَالمَشْهَدِ المُعَظَّمِ ذَنْباً إلاَّ غَفَرْتَهُ وَلا هَمّاً إلاَّ فَرَّجْتَهُ وَلا مَرَضاً إلاَّ شَفَيْتَهُ وَلا عَيْباً إلاَّ سَتَرْتَهُ وَلا رِزْقاً إلاَّ بَسَطْتَهُ وَلا خَوْفاً إلاَّ آمَنْتَهُ وَلا شَمْلاً إلاَّ جَمَعْتَهُ وَلا غائِباً إلاَّ حَفِظْتَهُ وَأَدْنَيْتَهُ وَلا حاجَةً مِنْ حَوائِجِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ لَكَ فِيها رِضىً وَلِي فِيها صَلاحٌ إلاَّ قَضَيْتَها يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

ثم عُدْ إلى الضريح فقف عند الرجلين وقل: السَّلامُ عَلَيْكَ يا أَبا الفَضْلِ العَبَّاسَ ابْنَ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا بْنَ سَيِّدِ الوَصِيِّينَ السَّلامُ عَلَيْكَ يا بْنَ أَوَّلِ القَوْمِ إسْلاماً وَأَقْدَمِهِمْ إيماناً وَأَقْوَمِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ وَأَحْوَطِهِمْ عَلَىٰ الإسْلامِ أَشْهَدُ لَقَدْ نَصَحْتَ للَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأخِيكَ فَنِعْمَ الأخُ المُواسِي فَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً قَتَلَتْكَ وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً ظَلَمَتْكَ وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً اسْتَحَلَّتْ مِنْكَ المَحارِمَ وَانْتَهَكَتْ حُرْمَةَ الإسْلامِ فَنِعْمَ الصَّابِرُ الْمُجاهِدُ المُحامِي النَّاصِرُ وَالأخُ الدَّافِعُ عَنْ أَخِيهِ المُجِيبُ إلَىٰ طاعَةِ رَبِّهِ الرَّاغِبُ فِيما زَهِدَ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الثَّوابِ الجَزِيلِ وَالثَّناءِ الجَمِيلِ وَأَلْحَقَكَ اللَّه(١) بِدَرَجَةِ آبائِكَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ اللّهُمَّ إنِّي تَعَرَّضْتُ لِزِيارَةِ أَوْلِيائِكَ رَغْبَةً فِي ثَوابِكَ وَرَجاءً لِمَغْفِرَتِكَ وَجَزِيلِ إحْسانِكَ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ وَأَنْ تَجْعَلَ رِزْقِي بِهِمْ دارّاً وَعَيْشِي بِهِمْ قارّاً وَزِيارَتِي بِهِمْ مَقْبُولَةً وَحَياتِي بِهِمْ طَيِّبَةً وَأَدْرِجْنِي إدْراجَ الْمُكْرَمِينَ وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ يَنْقَلِبُ مِنْ زِيارَةِ مَشاهِدِ أَحِبَّائِكَ مُفْلِحاً مُنْجِحاً قَدِ اسْتَوْجَبَ غُفْرانَ الذُّنُوبِ وَسَتْرَ العُيُوبِ وَكَشْفَ الكُرُوبِ إنَّكَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ.

فإذا أردت وداعه فأدن من القبر الشريف وودّعْهُ بما ورد في رواية أبي

---

(١) فألحَقَكَ الله.

حمزة الثمالي وذكره العلماء أيضاً: أَسْتَوْدِعُكَ اللَّه وَأَسْتَرْعِيكَ وَأَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ آمنّا بِاللَّه وَبِرَسُولِهِ وَبِكِتَابِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّه اللَّهُمَّ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْهُ آخِرَ العَهْدِ مِنْ زِيَارَتِي قَبْرَ ابْنِ أَخِي رَسُولِكَ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَآلِهِ وَارْزُقْنِي زِيَارَتَهُ أَبَداً مَا أَبْقَيْتَنِي وَاحْشُرْنِي مَعَهُ وَمَعَ آبَائِهِ فِي الجِنَانِ وَعَرِّفْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِكَ وَأَوْلِيَائِكَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَتَوَفَّنِي عَلَىٰ الإِيمَانِ بِكَ وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِكَ وَالوِلايَةِ لِعَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَالأَئِمَّةِ مِنْ وُلْدِهِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ وَالْبَرَاءَةِ مِنْ عَدُوِّهِمْ فَإِنِّي قَدْ رَضِيْتُ يا رَبِّي بِذَلِكَ وَصَلَّى اللَّه عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ. ثم ادع لنفسك ولأبويك وللمؤمنين والمسلمين واختر من الدعاء ما شئت أقول: في رواية عن السجّاد صلوات الله وسلامه عليه قال: رحم الله العبّاس، فلقد آثر وفدى أخاه بنفسه حتّى قطعت يداه فأبدله الله عزّ وجلّ بهما جناحين يطير بهما مع الملائكة في الجنّة كما جعل لجعفر بن أبي طالب عليهما السلام وإن للعبّاس عليه السلام عند الله تبارك وتعالىٰ منزلة يغبطه بها جميع الشهداء يوم القيامة. وروي أنّ العبّاس عليه السلام استشهد وله من العمر أربع وثلاثون سنة، وأنّ أمّه أُمّ البنين كانت تخرج لرثاء العبّاس عليه السلام وإخوته إلى البقيع فتبكي وتندب فتُبْكي كل من يمرّ بها ولا يستغرب البكاء من الموالي فقد كانت أُمّ البنين تُبْكي مروان بن الحكم إذا مر بها وشاهد شجوها وهو أكبر المعادين لآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. ومن قول أُمّ البنين في رثاء أبي الفضل العبّاس وسائر أبنائها:

يَا مَنْ رَأَى العبّاس كَرَّ على جَمَاهِيرِ النَّقَد ... وَوَرَاهُ مِنْ أَبْنَاءِ حَيْدَرَ كُلّ لَيْثٍ ذِي لَبَد

أُنْبِئْتُ أَنَّ ابْنِي أُصِيبَ بِرَأسِهِ مَقْطُوعَ يَد ... وَيْلِي عَلَىٰ شِبْلِي أَمَالَ بِرَأسِهِ ضَرْبُ الْعَمَد

لَوْكَانَ سَيْفُكَ فِي يَدَيْكَ لَمَا دَنَا مِنْهُ أَحَد

ولها أيضاً:

لاَ تَدْعُونِّي وَيكِ أُمّ البَنِين ... تُذَكِّرِينِي بِلُيُوثِ العَرِين

كَانَتْ بَنُونَ لِي أُدْعَى بِهِمْ   وَاليَوْمَ أَصْبَحْتُ وَلَا مِنْ بَنِين

أَرْبَعَةٌ مِثْلُ نُسُورِ الرُّبَى   قَدْ وَاصَلُوا المَوْتَ بِقَطْعِ الْوَتِين

تَنَازَعَ الخِرْصَانُ أَشْلَاءَهُمْ   فَكُلُّهُمْ أَمْسَى صَرِيعاً طَعِين

يَا لَيْتَ شِعْرِي أَكَمَا أَخْبَرُوا   بِأَنَّ عَبَّاساً قَطِيعُ اليَمِين

فهرس الكتاب